كتابة

رواية

يوسف نبيل زينب محمد

العالم على جسدى

FB/masbro3pdf

العالم على جسدى

رواية

يوسف نبيل
زينب محمد

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

سلسلة
كتابة

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
مسعود شومان

أمين عام النشر
محمد أبو المجد

مدير عام النشر
ابتهال العسلى

الإشراف الفنى
د. خالد سرور

• العالم على جسدى
• يوسف نبيل
• زينب محمد
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة 2014م
• تصميم الغلاف:
أحمد الجنايني
• تدقيق لغوى: ياسر المحمدى
• رقم الإيداع: ١٦٤٩٢/ ٢٠١٤
• الترقيم الدولى: 978-977-718-789-3
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 أ شارع أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
: 27947891 (داخلى: 180)

الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
: 23904096

30

سلسلة شهرية تعنى بنشر إبداعات الشباب

• هيئة التحرير •

مدير التحرير
السعيد المصرى

سكرتير التحرير
يونس شعبان

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف فى المقام الأول.

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

العالم على جسدى

أبتاه..

ارسم لى العالم على جسدى

(من أغانى سكان داكوتا الجنوبية الأصليين)

تمهيد لابد منه...

لم يصدقهم فى البداية، ولكنه سأل نفسه ماذا سيضيره من ذلك؟

لم يستطع شيء أن يحركه من مكانه منذ الحادث، اعتقد وقتها أنه لن يستطيع الاستمرار، ولكنه استمر رغما عن أنفه، بدأ يشعر بوجوده الخاص، وكأنه يختبر وجوده لأول مرة، اضطرب من ذلك الشعور بالراحة فى الوقت الذى كان يجب فيه أن يموت حزنا

سأل نفسه أهذه هى الحقيقة تأتيه بكل قبحها؟ ألم يكن يحبهم؟! لم يستطع الاستمرار فى ذلك، فهو يعلم مقدار حبه لهم؛ لذلك أخبر نفسه أنه ربما ما زال مضطربا منذ الحادث وغدا سوف تهدأ غرابة مشاعره

ذهب مثلما أخبروه فى الميعاد المحدد لتلك الورشة المسرحية، هو عاطل عن العمل ولن يضيره شيء من الذهاب طالما هى مجانية، ترك

العمل بعد الحادث بوقت بسيط، وكأنه اكتشف فجأة مقدار كراهيته له، تخرج منذ أربعة أعوام فى كلية الفنون التطبيقية، وفى ذلك اليوم بالذات خرجت أسرته المكونة من والده ووالدته وأخته التى تصغره بثلاثة أعوام فى رحلة إلى الأسكندرية، ألحوا عليه طويلا ليذهب معهم بلا فائدة، ولم يكن هناك سبب كاف لرفضه، أخبرهم أنه فقط سوء المزاج

تركوه وذهبوا ولم يعودوا أبدا! أصابته صدمة شديدة فور معرفته بالحادث الذى وقع لهم على الطريق الصحراوى واصطدامهم بشاحنة كبيرة، لم يتخيل أبدا منظرهم عند التكفين والدفن وظلت مخيلته محتفظة بتلك الصورة السليمة لهم قبل أن يشوههم الحادث.

عمه المحامى تكفل منذ فترة طويلة بكل الإجراءات فى سرعة شديدة؛ ليجد نفسه بعد ذلك يعيش وحيدا فى شقة الأسرة بالفجالة ويصله كل شهر ألف جنيه من فوائد المبلغ الوحيد المتبقى فى البنك

استيقظ فى يوم ما ليشعر بتلك الحرية المذهلة، ذهب إلى العمل وأخبرهم أنه سيتركه بلا رجعة، وبدأ يعيش على ذلك المبلغ الذى كان يكفيه - بعد عدة تحايلات - ليبدأ حياة جديدة فى وحدة، وفى ذلك اليوم الذى قرر فيه أن يذهب إلى تلك الورشة المسرحية التى أخبره عنها بعض أصدقائه من الكلية فى فريق المسرح الذى كان عضوا فيه لسنوات- علم أنه ذو كيان مستقل، وأنه سيبدأ حياة جديدة مليئة بالدهشة.

وصل إلى مكان الورشة وأخبرهم أحمد راتب - المخرج المسرحى والمسئول عن الورشة - أنها ستستمر يوميا فى عمل مكثف لمدة أسبوعين، وفى نهاية المدة سيتم اختيار عشرة ممثلين فقط من مجموع المتقدمين ليبدأوا فى كتابة نص مسرحى كنتاج لهذه الورشة، وسيتم عرض المسرحية فيما بعد فى أحد مسارح الشباب المستقلة.

سارت الأمور بشكل طبيعى فى اليوم الأول، تدريبات مألوفة إلى حد كبير صاحبها شعور بالانتعاش لم يشعره منذ توقف عن التمثيل فى فترة الجامعة، اشترك مع الجميع فى أداءات حركية عديدة، أخبرهم أحمد راتب أنهم ربما سيتعلمون حركات لمخلوقات أخرى غير الإنسان، لم يفهم أحد ونظروا إليه فى دهشة فأخبرهم ربما نتعلم حركات حيوانات، وربما نباتات! لم يرد أحد واكتفوا بالصمت لينتهى اليوم الأول من الورشة فى هدوء.

عاد بمفرده إلى منزله شاعرا بشىء ما ينمو بداخله. إيقاع حيوى كان قد نسيه منذ مدة، فسر هو ذلك بخروجه الجديد إلى الحياة مرة أخرى بعد أن قضى مدة طويلة فى بيته لا يخرج إلا نادرا، كان شديد الحماسة بالورشة ولكن خوفًا يغزوه فى هدوء، نام ساعات متقطعة وسط أحلام غريبة لينهى ذلك اليوم واعيا بذات منفصلة كانت قد توارت خلف حياة ميتة!

***

ذهب إلى المسرح مستقبلا عالمه الجديد باستسلام يخلو من الأمل واليأس، تزيده الحياة فقدا ويختلط عليه المعنى واللامعنى، راودته

أفكار جديدة تخلو من المشاعر ، راوده الاكتشاف راودته عودة الروح ظلت نظرياته بلا أمل أو يأس حتى وصل

ارتقى مسرحه هذه المرة بشعور جديد ، هو الذى لم يعبأ يوما بأحلامه واعتبرها تداعيات براءة بلهاء تذكر طفولته التى حلم فيها بالتمثيل ، بالوقوف أمام الجميع فى حركة يصنعها هو ، لن يتهمه أحد بالخبل ساعتها ولن ينعته أحد بالكذب وإن اختلق كواكب فضائية يحكمها بنفسه .

لم يستطع أن ينهى أفكاره رغم صوت أحمد راتب الرنان ، بل احتفظ بها على الهامش ، لطالما هجرته الذكريات والأحلام .. والآن هو لا يستطيع التخلى عنها ، كل ما يستطيعه هو أن يرددها بخفوت أمام عقله ، انتقل بمسامعه إلى راتب مستشعرا فرحا حين أدركت مسامعه كلمة طفل

تذكر طفلا يحمل نفس وجهه ونظراته فى الخوف ، بكى الطفل كما أراد يوما أن يبكى موت أهله . يبكى الطفل فى حين يعقد هو حاجبيه مدققا نحو آلامات طفله ، ركزت عينيه على حبله السرى المقطوع ، تخللت أنامله الحبل المبتور شاعرا آلام البتر

أدرك لحظة إفاقته من ذلك المشهد ، غسل وجهه بالماء البارد ونظر إلى أحمد راتب قليلا ثم ارتدى ملابسه ونزل مسرعا عن المسرح ، رده أحمد راتب بكلماته إليه سريعا دون أن يبدى إعجابا أو انزعاجا ، التفت أحمد راتب إلى شخص آخر طالبا منه نفس المشهد

تكررت لحظات الصراخ ولم يشعر أن أحبالا سرية قد قطعت ، لم

يشعر بآلام القطع إلا حين كان هو أول المجسدين للطفل، هل بدأ فى استشعار روح الممثل حين أصبح هو هو والطفل؟!

صاح راتب فى الجميع أن الآلامات المزيفة لن تترك الصدق فى الجمهور وأنه ما ينبغى علينا هو استحضار ما هو بالفعل داخلنا لا التصنع.

علم أن أحدا لن يعبأ بجنون المخرج، هو فقط خطوة معقدة إلى ما يريده كل ممثل لابد من تجاوزها حتى الوصول إلى الناس، الحديث عن العمق والحقيقة والواقعية والتخيل أكلاشيهات يرددها كل المخرجين.

رقدوا جميعا على ظهورهم مبدين السمع والطاعة، وربما ممثلين لأدوار الفاهمين، وأخذوا فى تنظيم أنفاسهم طلب منهم راتب أن يجربوا شعورهم بنبضات قلوبهم مدة طويلة، أغمضوا عيونهم وبدأوا فى تخيل المنظر الذى يتحدث عنه، بدأ يرتفع مقتربا من سحاب كثيف واضح أمام عينه حتى مضى بعض الوقت؛ ليجد نفسه محاطا باللون الأبيض من كل جانب، أشكال غريبة تكونها السحب من حوله، ثم بدأت بعد ذلك بعض الأقنعة تتساقط من على وجهه، كان لونها أسودا عكرا وسط ذلك البياض الناصع، ولكن السحب كانت تبتلعها حتى تختفى تماما، شعر بذلك الألم فى وجهه مع سقوط كل قناع أسود قذر جديد، بدأ فى خلع وعيه المزيف والتفكر فى لا شىء وسط موسيقى كونية بلا صوت سوى الفراغ! رويدا رويدًا أفصح الفراغ عن صور جديدة. عن بلاد أخرى. عن حرب ما.

طبقة الوعى الأولى
عفّار (تاجر الرقيق)

لم أفهم يوما أمرك أيتها الآلهة

اليوم الصحراء بكاملها أمامى فارغة من البشر ، ممتلئة بأنين الرعب والخوف ، كم علىّ أن أعيش من أعوام وتغيرات فى مصائر البشر ؟

يوما ما كنت عفّار النخاس الشهير ، أجوب كل تلك الصحراء مالئا إياها بالضجيج ، تنعمت بكل الملذات ولم أمنع شيئا عن نفسى . كادت الرمال تتجمد ذهبا بين كفى ، عشت فى جنة الآلهة التى كفرت بها الآن ، ولم أعلم أن يوما سينتهى كل هذا فى ومضة ، ما أصعب أن تكون للصحراء عاصفة تراب !

ذلك الشيطان . كان طفلا أمامى لا أدرى له أصلا ، لم يكن سوى رقم فى سلسلة طويلة من أرقام الغنائم ، أطعمته وحسنت من

هيئته قدر ما استطعت جودتُ من بضاعتى وشكلتها كما يريدها طالبها، هل يمكن استرجاع الزمن الآن؟ هل يمكن أن أستل السكين وأطعنه بدلا من أجعله ينمو بوسواسه؟

آآآآآه يا زهران

الزمن يذل ويشقى الجميع، لا فائدة من صلوات أو طقوس؛ فالآلهة لم تستمتع سوى بالعبث بنا، لم تر فى صلواتنا سوى لذة الإذلال، أود لو أقبض على الزمن وأوقفه متى شئت وأقطتع منه ما أريد كم على أن أدفع حتى أصير إلها لتلك الصحراء؟ أنا لا تنقصنى شجاعة، ذلك المقيت هل يستحق غيرأن يمحى من الوجود؟

نحن آلهة أنفسنا نعم

عشت أعواما طويلة أبنى مملكتى فى سكينة، امتلكت تلك الصحراء صرت عالمًا بدروبها وملوكها وعوالمها، أنا وحدى من أملك مفاتيح أسرار ملوك العرب فى المنطقة كلها، "الرغبات تكشف العقبات كل ما تمنوه اشتروه منى، كل ما نقص فيهم بحثوا عنه عندى، وأنا من يمتلك ما يفقدون؛ فأبيعه لأشترى مملكتى، تركت لهم ممالكهم وجنودهم وبنيت وحدى مملكة منيعة من المال، ملكت كل ما يتمناه الملوك من أجل بناء مملكتى. مملكتى التى تعبت بها أنامل ذلك الجرذ. الصبى الذى أتانى يوما ضمن غنائم إحدى الحروب كنت ربًا له ولمصيره.

تفحصت وجهه وجسده كاملين. . ذلك المُنهك الصحيح البدن،

تأكدت من سلامة بضاعتى وإن احتاجت منى لبصمة رعايتى، استوقفتنى نظراته. حدقت فيه بعض الوقت قبل أن أفيق وأكمل تجوالى وفحصى لبقية بضاعتى، كان ينظر إلى دون غضب دون خوف أو حزن. كانت نظرته رغم جسده شبه العارى نظرة باردة؛ برودة لم تكن أبدا لصبى مبتلى.

لا يشغلنى ذلك الصراع بين المملكتين من حولى ففى النهاية أنا أمثل الأرض الوحيدة التى لا يستطيعون ولا يريدون التعدى عليها، أنا من أنجز لهم ما يستعصى عليهم من أمور، تكفى علاقاتى القوية بالجميع. عفّار ليس مجرد نخاس فى بلاد العرب، بل هو إله العبيد!

عرضت الصبى ومن معه فى العديد من الأوقات للبيع. جاءتنى عروض كثيرة لشرائه إلا أننى احتفظت به. إتقان البيع أول طريقه لتعزيز المبيع، لم أرض بتلك الأثمان وكأنى كنت أرى جزءا من مستقبله، لم أسمع صوته إلا لمرة واحدة حين سألته عن اسمه فرفع وجهه ونظر إلى باترًا أى وصف له مكتفيا بفخر نطقه لاسمه زهران.

وددت للحظة لو أخفض نظرته وأمحو برودتها أردت ضربه وإهانته لتصحبه سمات العبيد ويتنفس خوفهم. لكنى لم أفعل، أتذكر الآن كل هذا وأتساءل لماذا لم أقم بهذا؟، كان هو وغيره قد بيعت أجسادهم ونفوسهم لنا بملبغ ضحل، كنت أستطيع فعل ما أشاء بمن أشاء من عبيدى، خيمتى تمتلئ من كل الفتيات والنساء

والغلمان، كلما أتذكر حفلات التعرية والمناكحة التى كنت أنظمها باستمرار أزداد تعجبا من عدم لمسى لهذا الصبى ولو لمرة واحدة، لم يسلم جسد من بطشنا أنا ومن جاء فى خيمتى، أترك من يجول خيمتى لمن يشاء من عبيدى. إلا بارد النظر

مخاطرتى الأخيرة تجعلنى أقترب أكثر من النهايات.. دوما حملت روحى على المخاطرة، ما أفعله بالأجساد دائما يهدد بانقلاب الجميع على. وها هو خوفى يتجسد فى ذلك المشوه.

أنا قابع فى مكانى فى تلك الرمال اللعينة منذ عدة أيام، فاض بنا الكيل نحن معشر النخاسين وها هم الجميع يجتمعون تحت لوائى لأداء المخاطرة الأخيرة، فإما نحيا مرة أخرى كآلهة وإما نموت كالعبيد، نحن فى انتظار مرور زهران منذ عدة أيام، كل شىء يمكن شراؤه بالمال، وهذا ما لم يحسبه زهران جيدا أخبرنا أحد رجاله بمروره من هذا الطريق، حتى أشد المخلصين لك ستجد لهم ثمنا هكذا هم العبيد.

عندما تحين لحظة بيعك من جديد سأخبرك بحقيقة كونك حشرة حمقاء تعبث فى عاصفة رمال بلاد العرب، لن تذكر من أنت كل ما ستعانقه هو خوفك حين يداعب خنجرى عنقك حينها سأترك اغتصابك مرة تلو الأخرى يخرج ما تبقى لك من حياة متخاذلة فى جسدك المشوه. لن أعطيك راحة الموت مرة، سأتركك تموت مرات انكسارا وذلا واغتصابا فتموت كما عشت عبدا

الجميع صاروا ضدك، بعد أن خربت كل شىء وبقيت وحدك تعيش وسط الحطام! أنا أعرف عن المتعة بالمال والفتيات والغلمان،

واللحوم والغزلان. وأعرف متعة البيع. أنت أيضا تستمتع الآن ببيع الأجساد، لم أتوقع أن ينافسنى عبدٌ على ملذاتى، لكن متعتك ليست كمتعة البشر أنت تقتات على التدمير

أحاول تذكر معجزات الأحداث يصيبنى ذهول استطاعتك لفعل ما لم يفعله متآمر داهية، كيف لطفل صغير يتم سبيه فى إحدى الحروب وبيعه لتاجر رقيق أن ينتقل إلى ذلك المركز المرموق فى إحدى الممالك القوية، أن يخدع الجميع ويدمر مملكة كاملة بمملكة أخرى آخذة فى الدمار هى الأخرى؟ كيف لخصى حقير أن يفعل كل ذلك وحده، وما المقابل؟ أن تعيش إلهها شريدا بائسا فى صحراء العرب على رأس عصبة من الرعاع تنتقلون من مكان لمكان، ولا تعرف راحة لقلبك؟

عجزت عن التخيل والتفكير، ولم يبق لى سوى شىء واحد التذكر

***

بكر

لم أعرف من الحياة سوى بعض اللعب فى الطفولة.

لم أكن قادرا على فعل شيء بمفردى لولا ضغط زهران المتواصل طوال العمر لأداء كل تلك الأفعال، عشت طفلا عاديا فى قريتنا الصغيرة المنسية بنجران وسط العديد من القرى التى لا يعرف أحد شيئا عنها، يخبروننى أنه على بعد مسافة ليست كبيرة توجد قصور وممالك أخرى لا يستطيع عقلى تخيلها حسنا أنا لا أستطيع تخيلها ولا أود من الأساس، لا أريد شيئا سوى أن يتركنى أبى وأمى لقضاء بعض الوقت مع زهران وبقية عصبتنا الصغيرة؛ لنلعب فى المساء قليلا

أقضى طوال اليوم فى رعى تلك الغنمات التى تشبهنى لأعود منهك القوى، مملوءا من هدوء الصحراء مبتعدا عن كل الأماكن التى

من الممكن أن أجد فيها كثيرا من الناس، كنت أصعد كل يوم إلى تلك الربوة المرتفعة لأنظر منها صدى عالم آخر ليس بعيدا كل البعد عنا، ولكنه بعيد عن قلبى. لم أكن أعرف أن يوما ما سأعيش وسط ذلك الصخب

آآآه لو أعود إلى غنماتى الصغيرة أحيا وسطها وبها وفيها فى ذلك الهدوء!

كنت أعود مسرعا قبل أن تبدأ الشمس فى المغيب مع غنماتى إلى منطقة خيامنا مرة أخرى، أمى تعدهم واحدة واحدة وكأنها لا تثق فى قدرتى على رعايتهن، أو خوفًا من أن يختطف منهن ذئب أو بشر أضحك فى نفسى بينما هى تواصل عدهن، أتركها لأجلس تحت المظلة قليلا فى انتظار أن نجتمع جميعا ونأكل سويا لا تمضى ساعة واحدة حتى يكون أبى قد أتى هو الآخر مع شقيقى الوحيد الذى لم نسمه بعد إنه الوحيد الذى وُلد فى منطقتنا وظل عدة شهور دون اسم بعد أن تعارك أبى وأمى حول اختيار الاسم، أنا أدعوه باسم غنمتى الصغيرة فهو يشبهها كثيرا

أبى كثيرا ما يغيب عدة شهور فى رحلاته التجارية ليعود يحكى لنا عن أخبار عوالم أخرى يملأها العنف والثراء والأبنية المرتفعة، أنظر له وسط كل تلك الحكايات لأزيد من التصاقى بغنماتى الصغيرات، وكأنى أستشعر قلقا خفيا من الانفصال عن عالمى الصغير

زهران هو صديقى المقرب. أعرفه منذ رأيت هذا العالم، نحن فى نفس العمر تقريبا تفصلنا عن بعض عدة خيام فقط، متعتى

الكبرى بعد العودة بغنماتى من الرعى اليومى تنحصر فى اللقاء بزهران وبعض الصبية الآخرين، هناك ساحة فارغة وراء خيام قريتنا الصغيرة دائما نلهو عندها، أنتهى من الغذاء وأهرع راكضا إلى زهران الذى سرعان ما يخرج من خيمته إلى، نركض سويا لنحضر بقية الأصدقاء ونذهب فى جولات متعددة، كثيرا ما أصطحبهم إلى تلك الربوة العالية لننظر كل تلك الأماكن البعيدة، والعوالم الأخرى، أخبرهم أن أبى فى رحلات كثيرة يذهب إلى تلك البلاد، وأحاول قص حكاياته المذهلة.

كثيرا ما يجبرنى زهران على التوقف، ويخبرنى أنه يعرف حكاياتى، ولا حاجة لى أن أقص عليه ما يعرفه بالفعل، هوة كبيرة كانت تفصلنا جميعا عن زهران، إنه لا يذهب كل يوم مع غنماته مثلنا، بل يقضى وقته فى التسكع منتظرا عودتنا، حاول أبوه وأمه كثيرا إجباره على العمل حتى يستطيع التعلم قبلما يمر الوقت ولم يطعهما أبدا

أخبرنا أنه لا حاجة له لتعلم ما يعرفه بالفعل، كان يخبرنا بالعديد من القصص والأخبار عن ذلك العالم الآخر الذى لم نعرفه أبدا سوى من بعض الحكايات التى نسمعها من وقت إلى آخر، كان زهران مرجعنا الوحيد والأكبر، حسدته كثيرا على راحته؛ فهو لا يضطر إلى الاستيقاظ مبكرا مثلنا؛ ليبدأ رحلة طويلة مع غنماته مسلحا بسكين سائرا وحده فى خوف من الذئاب المنتشرة أو من تعدى أحد عليه والاستيلاء على غنماته الصغيرات

نعم أنا أحب تلك الرحلة اليومية، ولكن كثيرا ما أجد نفسي في رغبة لعمل لا شيء، وقضاء وقت أكبر مع أبي الذي يقضي أوقاته مع بعض أصدقائه بعيدا عن رحلات الرعي، يوما ما سأكبر مثله، ولن أكون مضطرا إلى العمل المنهك كل يوم، وسأجوب العالم كله.

هكذا كنت أحدث نفسي في تلك السن الصغيرة، أما الآن فقد جبت أحداثا كثيرة وخضت بعض الحروب ودخلت قصورا لطالما حلمت بدخولها في صبايا لكن هل ما زلت أريد هذا فعلا؟

ها نحن هائمون في الصحراء مرة أخرى في انتظار أوامر زهران بعد أن صارت حياتنا كلها متوقفة على كلمات منه، ما زلت أحبه وأعرف وأقدر قيمة قدراته الخاصة، هو كمن خُلق من طبيعة مختلفة عن طبيعتنا، نحن لا نستطيع مداراة خوفنا وسط ذلك الجحيم من القتل والتدمير، أما هو لا يهاب شيئا

لا يصيبني الشعور بالذنب الآن على جوابنا الصحراء وسرقة كل ما يمكن أن نسرقه، لأن الآن الأوضاع مختلفة، لقد قاموا بإذلالنا وأنكروا حق العيش علينا، ولا فرق بيننا وبين الآخرين حتى نعيش طوال عمر عبيدا في خدمة سادة لا يدركون شيئا سوى إشباع بطونهم نحن لم نقم بسرقة رجل فقير أو حاكم عادل أبدا منذ تكوين عصبتنا الصغيرة مع زهران

أنا أفخر بكوني واحدا من رجالك يا زهران

هكذا أخبرته وما زلت أيام عديدة لأخبره. فلولاه لظللت عبدا حقيرا عند ذلك الملك الظالم المدعو الهاشمي. لقد انتقمت الآلهة

منه بتدمير مملكته، كان لزهران الدور الأكبر فى هذا بعد أن استهان الجميع بقدرة عبد خصى حقير على فعل شىء، كنا فى ظلام اليأس عندما بدأ زهران ينتشلنا ليعرض علينا خططه التى فاقت جرأتها خيالنا، ظللنا نهرب منها ومن أنفسنا شهورا عديدة حتى استولت على خيالنا وواقعنا، وقلبت حياتنا جحيما

لم نعد نستطيع قبول ما قبلناه منذ سنوات وظللنا نفعله طوال الوقت بلا تذكر، كنا قد صدقنا أن هذا قدرنا وأنه لا حيلة لنا فى تغيير شىء، أما زهران ضرب بكل هذا عرض الحائط، ما زلت لا أدرى كيف حدث كل هذا، وعند أى شعور بالذنب يقترب منى بعد تحولى لقاطع طريق فى عصبة زهران أسرع إليه فيخبرنى كلمة واحدة بكر تذكر ؛ فأتذكر كل ما حدث لى ولأبى وأمى ولكافة قريتنا الصغيرة فى القديم.

وتعود إلى الحكايات بكثافة وأشعر بغنماتى الصغيرات من حولى وأرى زهران يقودنا فى ألعابنا من جديد ليعاودنى حنين إلى تلك الحياة الهادئة التى لم تستمر طويلا

أكان محتما أن يحدث كل هذا؟ لماذا نجوت وحدى من الموت يوم دُمرت قريتى لأشهد على الهلاك؟ لا أعرف شيئا والآلهة لا تجيبنى عن شىء، أشعر أن زهران وحده يملك الإجابة، مازالت وقائع تلك الأحداث محفورة فى ذهنه.

بدأ اليوم المشئوم حين ذهب بعض أفراد قريتنا إلى عين الماء القريب كعادتهم، ،كنت أنا الآخر فى طريقى إليهم عندما وجدت

البعض يركضون عائدين حاولت أن أعرف ماذا حدث، فلم يخبرنى أحد بشيء سوى صياحهم عُد. عد من حيث أتيت

قدت غنماتى إلى الخلف وركضت قدر الإمكان بهم إلى قريتنا مرعوبا، ما إن وصلت حتى وجدت كل شيء مقلوبا رأسا على عقب. أذكر جيدا شعورى.. ألمى الشديد من أنى لم أعرف ما حدث لمدة طويلة، وجدت زهران خارجا من خيمته؛ فسألته عما يحدث، أخبرنى أنه فى الصباح حدثت مشاجرة بين رجلين من قبيلتنا مع آخرين من قبيلة الأزد فى أثناء تزودهم بالماء، تحول الأمر لقتال بينهم حتى قُتل رجلى الأزد

حدقت فيه فى ذهول فأنا لم أسمع منذ ولدت عن حادثة قتل فى قريتنا الصغيرة فالموتى هنا بلا قتال، سألت زهران عما يمكن أن ينتج عن هذا؟، أخبرنى أن قبيلة الأزد ضخمة ولا أحد يعرف شيئا سوى أننا معرضون للخطر

سرعان ما أدركت صوت أبى يدعو رجال القرية للحضور بخيمته، حاولت الدخول لأسمع شيئا إلا أن أمى طردتنى خارجا، ظللت هائما وحدى لا أعرف ماذا أفعل، ولم أجد زهران وقتها

أتى الصباح وأخبرتنى أمى ألا أذهب بالغنم، حدقت فيهم فبدوا لى بائسين يتضورون جوعا وعطشا، بينما أبى على غير عادته مستيقظا حاملا سيفه، سرعان ما انضم لأبى رجال القرية لينطلقوا على جيادهم إلى مكان ما قبعت فى مكانى أراقبهم دون أن أفهم سوى خوفى حتى ابتلعتهم الصحراء.

بينما أنا فى سكون الرعب وجدت زهران أمامى يشير لى بالاقتراب فنهضت إليه ومشينا من جديد سألت زهران عما يحدث، أجابنى بلهجة العارف بكل شىء

- قرر رجال قريتنا بالأمس أنهم لن يستطيعوا التصدى بأى شكل للأزد وأن عليهم اصطحاب الرجلين لطلب العفو وتعويض القبيلة بما تشاء من جمال وغنم.

كانت المرة الأولى التى يبتعد فيها السلام عن قريتنا وعن نفسى بدأت أفكر أن أبى لن يعود تلك المرة سالما، وأن زهران يعرف أكثر حين ردد أن الأمور لا تبشر بالخير، تركته لأذهب حزينا إلى خيمتنا، لم تصدر أمى صوتا واحدا وكذلك أخى، رقدت على فراشى شاعرا بوحدتى فى ظلام مخيف

عندما استيقظت كان كل شىء قد تغير إلى الأبد، حتى الآن أتساءل عن ردة فعلى فى حالة عودة الزمن، هل كنت سأتركهم وأذهب مع زهران مثلما فعلت؟

هزنى زهران بعنف لتوقظنى يده وصراخ النساء، نظر كلانا إلى ما يحدث فى فزع، النيران فى كل مكان والصراخ يخترق الآذان، لم أدر بنفسى إلا وزهران يمسك معصمى ويجذبنى لنركض سويا، كيف استطعت أن أركض وسط هذا؟ لا أعرف

ركضت مع زهران مدة طويلة جدا متحاشين الغرباء قدر الإمكان سرنا نحو الربوة لنتجاوزها إلى الطريق الذى طالما نظرنا إليه من بعيد دون أن نجرؤ على اقتحامه. كانت الأصوات والنيران من خلفنا

تبتعد تدريجيا، ونحن نواصل الركض فى رعب، توقفنا من فرط الإنهاك وحان لى للحظة أن أنظر وجه زهران، كان فى صمت تام عن أى تعبير أو كلمة، لم يعد باستطاعتنا الركض مجددا، فبدأنا نبتعد سيرا على الأقدام، البرودة تجتاح أجسادنا، حاولنا المقاومة وكل منا يجر الآخر ويحاول إجباره على مواصلة السير حتى سقط كلانا أرضا

لسعت الشمس وجوهنا فبدأنا نفيق ببطء، كانت عظامى مخدرة والآلام تحيط بكل جسمى، بدأت فى تبين المعالم ببطء لتجمدنى المفاجأة. مئات الرجال حولنا يتقاسمون الغنائم، غنماتى تعلو النيران. آخرون يلامسون نساء قريتنا والبعض يسترخى فى هدوء، نظرت لزهران وإذ بكلينا بلا حراك، اقترب منا رجلان يضحكان. أخبرانا أن قائدهما أعجب بشجاعتنا فى الهروب فمنع الجميع من إحداث أى أذى بنا، وسيكتفون فقط ببيعنا إلى أحد النخاسين.

لبثت فى شلل تام لا أستطيع الحديث أو الصمت، أنظر إلى زهران فأجده شاردا إلى نقطة فى الأفق البعيد، أحاول الحديث معه بلا فائدة.

لم يتم ضربنا ولا التعدى علينا فقط أشار لنا بعض الرجال فنهضنا وذهبنا معهم إلى إحدى الخيم المنتصبة وجلسنا أمامها، أعطونا بعض الطعام لنحيا

كان المشهد فى نهايته، قُتل من قُتل وتعذب من تعذب ولم يبق سوى رماد الحياة وبعض أسرى تحوطهم آثار الضرب ودماء الوحشية.

ظللنا فى مجلسنا عدة ساعات حتى أتى أحدهم على ظهر جماله مع بعض الرجال، رحب به الجميع وأشاروا له ناحيتنا، بدأ يقترب، ونظر فى وجوهنا وتفحصنا جيدا بعينه، أشار للبعض بالتقدم خطوة للأمام، وكنا منهم أنا وزهران، بدأ فى تفحص جسدنا بالكامل، قام بقية الرجال بتعريتنا كاملا ليساعدوه على إتمام مهمته، انسلت دمعة حارقة من عينى ونظرت إلى زهران فإذا به متجمدا كأنه لا يعيش ما يحدث، مرت الأوقات ببطء قاتل حتى انصرف الرجل من أمامنا، وذهب ليتحدث مع هؤلاء الرجال قليلا، ثم امتطى جمله وحوله رجاله، قادونى أنا وزهران ومجموعة أخرى مربوطى الأيدى بالحبال وأمرونا أن نبدأ بالسير فى قافلتهم، نظرت خلفى بينما نسير إلى بقية الأسرى، ولكنى أعدت رأسى إلى الأمام فورا مع فصل أول رأس منهم بسيف الرجال.

اختاروا منا البعض وتم بيعنا إلى ذلك النخاس الحقير، وتم قتل البقية. لم أكن أصدق ما حدث، ها أنا أذهب إلى المجهول

***

تميم
(العامل فى بلاط الملك الهاشمى)

وكأنه قد ملك العالم كله بزواجه من تلك المرأة !

ملكنا العظيم الهاشمى تزوج أخيرا بعد طول بحث ، ومنذ ذلك اليوم بدأ كل شىء فى التغير ، تلونت المملكة بألوان لم نعهدها من قبل ، استمرت الاحتفالات أربعين يوما كاملة ، وانصرف الجميع طوال تلك الأيام ببطون مملوءة ، وكأن مخازن الآلهة قد انفتحت ، تم الإفراج عن الكثير من المجرمين القابعين فى السجون منتظرين تنفيذ أحكام قاسية .

كدت أشعر أن الأرض نفسها تغيرت ؛ ففى اليوم العاشر من الاحتفالات هطلت أمطار غزيرة ولم يعد أحد يصدق أنه يعيش على أرضنا القاحلة ، كانت أيام الخير الوفير ، أما عملى فاكتسب أهمية تكاد تضاهى أهمية عمل الوزير "الزرقان" فى المملكة ، أحتفظ

بالطبع بعدد هائل من الاختلافات فأنا ذو مهارات مفيدة لكنها ليست ماكرة كمهارات الوزير

رأى الجميع الاختلافات التى حدثت خارج المملكة منذ إعلان الزواج، ولكنهم لم يروا ما حدث داخل القصر، أنا المسئول عن كل احتياجات وأمور القصر من الداخل أصبحت محملا بأعباء ومهمات لم أتصورها من قبل، فقد كان ملكنا لا يلقى بالاً إلى قصره، ملكنا من البداية رجل عمل وحرب، نعمت المملكة بأعوام من السلام منذ تولى الملك. سلام مبنى على القوة والاستعداد الدائم، لم يترك ملكنا يوما إلا واطمأن بنفسه على جيشه الكبير واستعداده الدائم.

تغير القصر وكأنه استنشق أنفاس أنثى فأذابته جمالا، ملكة ابنة ملوك لا تضاهيها فتاة فى الجمال والحسب، تم كل شىء وانتهت الاحتفالات وأنهى على أنا الآخر تعب جسدى.

أشرفت على تجديد القصر بالكامل، أرسلت القوافل إلى الممالك المحيطة ليأتونا بأجمل الأخشاب والأحجار والجواهر اختبرت أفضل الطهاة فى المملكة لمطبخ القصر راقبت العبيد والصناع إلى أن تم كل شىء إلا تلك المهمة الأخيرة.

طلبت الملكة من زوجها خادمات وغلمان لخدمتها، حاول هو إقناعها بتوفر العديد منهم فى القصر، ولكنها لم ترض عنهم وطلبت المزيد، وجدتنى فى حضرة ملكنا العظيم يكلفنى بشراء بعض الغلمان والإماء ليعملوا داخل القصر من أجل خدمة الملكة،

كانت هى بجانبه تستمع لكلماته ونظر لها ؛ فأبدت رضاها وارتياحها وانصرفت ، طلب منى الاقتراب وأخبرنى

- تأكد من خصاء الغلمان .

أومأت برأسى موافقا وانصرفت ورأسى محمَّل بالأفكار ، على أن أعد العدة سريعا لأبدأ رحلتى ، قررت أن أذهب إلى النخاس الأشهر فى بلاد العرب عفّار رحلة إلى عفار ستستلزم مجهودا كبيرا ، على التأكد من استمرار العمل بالقصر فى غيابى ، لا أريد أن أشوه ما فعلته حتى الآن بعد أن أعلن الملك وعروسه رضاهما عن القصر والخدمة ، نجاحى يعنى مزيد عطايا وقربا من الملك .

أخذت بعض الرجال والجنود لحراسة قافلتنا بعد موافقة الملك ، قمت فى الليل بعد أن ذهب ملكنا وملكتنا للنوم بتجميع كل طاقم العمل فى القصر ، وفى هدوء راجعت عليهم كل شىء ، تضاعفت نوبات العمل على الجميع لسد العجز الناتج عن سفر البعض بصحبتى ، لم أترك أمرا صغيرا ولا كبيرا إلا وأنهيته وتأكدت من استمرار العمل بدقة ترضى الملك والملكة .

ذهبت إلى غرفتى لأنام الليلة الأخيرة قبل السفر ، لم أستطع النوم سوى مدة بسيطة غلبنى فيها النعاس لتوقظنى برودة الفجر ، نهضت ولملمت كل ما أحتاج وخرجت إلى ساحة القصر لأجد الجميع فى انتظارى ، لم تمض مدة بسيطة إلا وكنا فى عمق الصحراء

الأيام تمضى فى الصحراء فى صخب هائل ، إنها المرة الأولى التى أدرك فيها كم للصمت من صخب ! عندما يصمت الجميع وتسمع

وحدك صوت الصمت تعلم أن الأكوان من حولك تتصارع وممالك من عوالم أخرى خفية تعمل وتتعارك وتنتصر وتهزم وتعيش وتموت بينما أنت تتوهم الصمت ! وصلنا أخيرا بعد عشرة أيام كاملة من السفر إلى مقر عفار كنا قد أرسلنا له رسولنا من مدة بسيطة قبل السفر ليعلم بقدومنا ليعد حاجتنا، بمجرد وصولنا وجدناه فى استقبالنا دون انشغال، أخذنى ورجالى إلى خيمته لتناول الطعام والشراب حتى امتلأت البطون، أبدى فرحه الشديد واهتمامه بطلبات الملك، وأنه جهز أفضل بضاعته لملكنا العظيم، وصلنا إلى تلك الخيمة التى يصطف أمامها سلسلة طويلة من العبيد استجمعت فى ذهنى كل تلك الأوصاف الدقيقة التى طلبتها الملكة جلنار منى فى حضور ملكنا الأعظم، كانت تسهب بدقة فى الوصف وكأنها ترى هيئة من تريده، لم أواجه مشكلة فى الإماء فقد كان عددهن كبيرا بكل الأوصاف والأشكال المختلفة، ظللت طويلا أبحث عن هؤلاء الغلمان الصغار الذين قد يصلحون لخدمة الملكة، اقتربت من عفار وسألته عن وجود خصيان وسط هؤلاء الصبية الصغار، فأجابنى بالإيجاب، وأخرج بعضهم أمامى، لم يخف عنى مطلقا تلك النظرة التى رمى بها أحد الصبية الذين أخرجهم فى المقدمة، ظللت أحاول سبر غورها بلا فائدة، نظرت إلى وجه ذلك الصبى وسألت عفار عن اسمه فأجاب زهران.

حدقت مدة طويلة فى الخصى.. يوجد فى عينيه ما يأسر، أفقت من شرودى ونظرت إلى بقية الصبية وقمت فى النهاية باختياره

وبعض الصبية الآخرين، وكانت تلك اللحظة الوحيدة التى وجدت فيها عين زهران تتجه بقوة نحو أحد الصبية فى خوف، فهمت على الفور أنهما قد تم أسرهما من مكان واحد وربما يكونان شقيقين، لا أعرف لماذا قمت بذلك، لكنى قمت باختيار الآخر أيضا مع بقية الصبية، ونظرت مرة أخرى إلى الخصى فإذا به يهرب من عينى ليعود إلى ثباته.

دفعنا المبلغ المحدد لعفار، ذلك الجشع طلب مبلغا مرتفعا للغاية، ولكن لا يغلو شيء على ملكنا وملكتنا، قمنا بالإعداد للرحيل بعد أن استراح طاقم رحلتنا بعض الوقت وما إن هدأت حرارة الشمس حتى بدأنا رحلة العودة.

الملكة جلنار

لأول مرة أصطدم فى سؤالى هل أملك الشجاعة أم لا؟، دخلت على الملك لأخبره بخطتى الجديدة لتحسين حال العبيد، بالطبع لم تكن خطتى ولم أكن يوما لألتفت لأشياء قصرى إلا حين أدركت أن لها أنفاسا، لم أقتنع أنها كأنفاسنا لكنها ربما تحتاج لمزيد من هواء

زجرنى الملك أشد ما يكون الزجر واتهمنى بالجنون والسفه، كيف أضيع وقت جلالته لمثل هذه التفاهات، كيف ألوث أذنى وأذنه بذلك الصرير العفن عنهم، شعرت أنى أرى زهران وأسمع كلماته المقتضبة عن ذل العبيد، وأسمع صوتى لأول مرة يُبح

هددنى الملك بطرد كل هؤلاء المثرثرين، وتطاولت بتحذيره من المتملق الذى لا يريه إلا أنصاف الحقائق

- نعم، اعلم أن وزيرك المخلص لم يكن لك إلا وجه القبح.

هكذا صحت قبل أن تدركنى يده بلطمة على وجهى كانت أول معرفتى بذل زهران وأمثاله، أصبحت الملكة بجلالها هى الآخرى كالعبيد تُلطم الوجه.

دخل بعدها بلسان أفعاه يهدأ الملك لابسا رداء الحكمة مخفيا سواد البغضاء، نصح الملك بالهدوء ودعا لمولاه بالبصيرة والانتصار على أعداء المملكة توسل له بالعفو عنى فى كلمات لا تنصح سوى بإدانتى وربما بقتلى

لم أعرف قبلا توسلات للآلهة، كيف للملوك أن يتوسلوا ملوكا. كنت دافعى للتوسل، الجميع الآن يرقبون النظر إلى رأسك مبتورا. القصر الآن يتآمر بكامله يلعن ذلك الجسد المشوه الذى شوههم وعراهم.

أنا لا أصدق أن تلك الأنامل التى احتفظت برقة رغم أعمالها تستطيع أن تتقن شيئا سوى الانزلاق على جسدى، روائح البخور كلها تجمدت منذ هاجرت أنفاسك، لا أصدق ما يقال عنك أنت البعيد عن الحروب، القاطن فى حوضى، المرافق لعطورى.

كنت كلما أدرت لك وجهى وجدت فى عينيك كل الاتهامات التى ربما يجهلها عقلك، يرجمنى جسدك المبتور كلما تذكرت أننى سببا لما أنت عليه الآن، أتذكر دلالى على الملك وطلبى للمزيد من العبيد ولمزيد من الرفاهية

لم يرفض ولم يكن ليفعل رغم شروطى التى كانت تبدو غريبة

وصعبة الوجود فى عبد ، كان دلالى عليه وطواعيته سببا فى إملائى شروطى فى شراء العبيد

أريد واحدا لمساعدة الجوارى فى حمل المياه الساخنة فى الحمام ، غير عابس الوجه يبدو مألوفًا بلا غرابة عن ألواننا

بالطبع وافق الملك ملكته ، هو فقط عليه إملاء الشروط وعلى العاملين خلق الهيئات .

لم أتعود النظر إلى ممتلكاتى كما نظرت لها مرتك الأولى ، أحواضى وعطورى وزيناتى ما كنت لألتفت إليها إلا عندما رأيتك أول ما دخلت منبهر النظرات متخبط الممشى تنظر أسماكى فى حوضها تغمض عينك لنفس عميق استرقته طفولة شديدة الكبر تخطو نحوك .

وقفت بعد نظرة منى شديدة الخشونة إليك أرادت تجريدك من أوهام البراءة ، أفزعتنى نظرتك وكأنك تملك كل شىء رغم فقرك ، أحنيت رأسك بعدها ونظرت بعيدا ؛ فتضاءلت ، لم أنس أبدا تلك النظرة . أصبحت هى أنت

لم أكن لأحدث أحدا إلا كقامتى ؛ الجميع عدا الملوك عبيد ، كنت أرقب عودة الملك لأمتعه بذلك الحديث الذى أعددت كلماته داخلى عن ذلك الخصى

مضت سنواته الأولى لم أسمع له صوتا ، ولم تكن لى سوى نظرته الأولى وكفى ، كان سريع الفهم ، استراحت الجوارى لطفولته

ولم تخش ما لن يأت بعدها، جسده يزداد قوة فى ألفة لهن، إلى أن أدركت صوته لأول مرة فى صيحة صاحها نبهتنى إلى أن أملاكى لربما صاحت يوما؛ وإن كانت لخصى لم يتسرب لصوته خشونة.

كانت صيحته "كان على قتلها" لم أفهم ولم يكن لمثلى الانتباه لنشاز العبيد، أشرت غاضبة من الصوت فانحنى وغاب عنى، كتمت ضحكة داخلى من ذلك المعتوه، من يريد قتل سمكة؟ همس لإحدى جارياتى مستفهمة عما حدث. قالت لى إن إحدى سمكاتى الجدد كانت مصابة بالعماء. أفرد لها زهران حوضا تتخبط فيه وحيدة بعماها ولم نستطع الاستغناء عن الحوض مدة طويلة، وطلبنا منه نقل ضريرته إلى باقى السمكات، لم تدرك السمكة الازدحام الجديد، ولم تدرك كذلك يوما عماها أخذت تتخبط فى الحوض وفى محتوياته، لم تكن شديدة السرعة للهرب من أفواه الأسماك الغاضبة، وجدها الخصى، وجد أشلاءها قد طفت على الماء وقد عكرته، كان الخصى يدعوها سمكته.

لم أجعله يقف جوارى بعدها، جعلته يحمل عطورى عارضا قواريرها أمامى وعارضا نفسه كذلك، ربما لأشاهده كما اعتدت أن أشاهد أشيائى التى أستشعر بها جمالا، أخذنى - بعد عدة أشهر من موت سمكته - فضولا لأعرف قصة ذلك الخصى الذى تجرأ على نسبة أملاكى له، بنظرته الأولى، ثم بكلماته أيضا، سألت إحدى الجاريات بمن جاء بذلك الخصى فلم تكن ذاكرتى لتعبأ بتلك الأشياء أو هكذا عودتها منذ عهودى بالُملك، قالت إن عامل البلاط قد جاء

به بعد أوامرى منذ سنوات بجلب عبد مألوف الهيئة يحمل عنا الماء، وأنه قد جاء ضمن بعض الجاريات مصاحبا لذلك العبد خادم الخزانة.

سألتها هل تستطيع جلب ذلك العبد لى لوقت؟ أجابت بالسمع والطاعة، إلا أنه من غير المسموح له ولوج جناح الحريم، وأنها ستجلبه للبهو وقتما أردت، أمرتها أن تذهب حالا وتحضره لى ما كان فضولى ينتظر المزيد وجميعهم ليس لديهم سوى خدمتى

أنهيت حمامى بعد وقت طويل، لا داع لاستعجال أى شيء طالما هو بحوزتى كل الأوقات، أنظر إلى الخصى عالمة بحكايته فرغبتى وقدرتى على تحقيقها يساوى عندى علمى بكل شيء أريده

جاء إلى عبد الخزانة، مجرد سؤالى عن اسمه شرف يجعله يفضى إلى بما فى جعبته، زدت عليه مناداتى له به حتى لا يترك التفاصيل

- هل تعرف هذا الخصى منذ القدم؟

- نعم مولاتى يدعى زهران، ننتمى لنفس القبيلة.

- حقاً! وماذا تعرف عنه؟

- أعرف عنه طاعته لك سيدتى ولمولاى طال عمره.

بالطبع لم يفهم ما أرمى إليه فالخوف دائما هو الرفيق المحب للعبيد، ضحكت وأنا أكن داخلى سمت الملوك، وأرمق فيه هلع العبيد وأكملت

- هل ولد هذا مشوها؟ أم هيأه النخاس لى؟

أحنى رأسه وصادق الحزن خوفه وحكى

- لا لم يكن زهران خصيا، كنا أولادا أحرارا ولم نشب كذلك، لم تكتف الحروب بسلب ممتلكاتنا بل سلبتنا نحن كذلك، اشترانا عفار كبير النخاسين سيدتي- نحن أقمشته يخيطنا كما يشاء، كان زهران نبيا أو هكذا كنت أنظر طفولته الحكيمة، كان النخاس ليلبي طلب مولاتي بعد أن علم من خادم البلاط ما أردت فهيأ زهران

- وكيف هيأه؟

- أذكر حينما عراه أمام الجميع وطلب من مساعده تطويق ذراعيه. لم يقاوم زهران في البداية إلا حينما رمق آلاته الحادة. صرخ زهران صرخة الفناء، ولم نسمع بعدها صوته، أخذنا نشاهد ما يحدث في صمت الرعب، أزال النخاس ما لم ترده مولاتي بعبدها سكب النخاس على الجسد المشوه زيتا ثم صبغه بالحناء، أمر تابعه أن يحفر له في الأرض مرقدا يتسع لنصف زهران، وهكذا ظللنا ليومين نعبر طريق زهران دون حديث إليه أو إلينا، تعلمنا أن نخفض أنفاسنا، توسلنا بالخوف للآلهة أن تحيي ما تبقى من زهران لنا

الكلمة كما تحيي كذلك تقتل، دس صوت عبد الخزانة داخلي كراهية الملوك، ولم يجول بخاطري أني منهم، أنا الملكة التي يحتفي برقتها الجميع لا يجوز نسبة أية مآسي لي.

كان عبد الخزانة يقص علي مروية حكيم، لم أكن لأرى إلا

فضولى أولاً، ثم زاد الفضول من معرفة المأساة إلى إشفاق، وسرعان ما تحول إشفاقى إلى شىء لم يُكشف لى بعد

أومأت له بالرحيل؛ فرحل ومعه سوطى. كيف أجرؤ بعدها على طلب المزيد؟ يكفى ما أردته سابقا يكفى.

***

الوزير "الزرقان"

ذلك الخصى الحقير سوف يُقتل عما قريب

لولا سرعة هطول المصائب وتعقد الأمور لكنت قد قضيت عليه... إنه يستغل تقربه من الملكة ليغير من الأمور ويصبح فاعلا فى حياة هذا القصر وتحديد مصائر عبيده.

فى الوقت الذى كنت أفكر فيه فى القضاء عليه سقطت من السماء مصيبتان، الواحدة منهما قادرة على تغيير مصيرى. ظللت أدعو كثيرا أن تنقذنى الآلهة من تلك المآزق

مصيبتى الأولى شكوك تراودنى بشأن ذلك الخصى زهران أصبحت الآن مؤكدة وتهدد بالخطر، فى البداية كنت أفكر فى إقناع الملك بطرده من القصر لتطاوله على، ذلك الخصى تطاول على يوما عندما طلبت منه أن يحضر لى السوط لجلد أحد العبيد، نظر إلى

بتحد وأخبرني أن يوما قريبا لن يلامس فيه السوط ظهر العبيد بل سيجلد الوزراء ! لم أصدق أذني وظننت أن المشكلة لا تتجاوز عبد فقد عقله يجب تأديبه ، بالطبع لاحظت معاملة ملكتنا الرقيقة له بشكل مبالغ فيه ؛ إلا أنني لم أجرؤ على مصارحة أحد بشكوكي .

تطورت الأمور سريعا ، بعد انتحار الأمة أسماء شعرت أني أواجه مدمر لا مثيل له ، أحدق في وجهه اليوم وأحاول سبر أغواره . ماذا يرقد خلف تلك العيون الغائرة ؟ لقد راودتني الشكوك في جزء عميق من قلبي حول علاقة ذلك الخصي بملكتنا ولم أكن قادرا على تصديقها كيف يمكن لملكتنا أن تلتفت إلى عبد ، وخصي واهن الرجولة ؟ ! ! ظللت أحاول إبعاد تلك الأفكار عن ذهني إلى أن أجبرني فضولي وخوفي على الملك محاولة كشف السر

في أحد الأيام أحضرت تلك العبدة "أسماء وأمرتها بالتقرب إلى زهران ومرافقته في كل كبيرة وصغيرة ، سألتني كيف تفعل مع خصي ؟ أخبرتها أن تتقرب إليه مهما كان الثمن وتمنحه أي نوع من المتعة ألا يستطيع الخصي أن يستمتع بأية طريقة ؟ ألا يشعر بأي شيء تجاه امرأة جميلة المفاتن ترقد عند قدميه ؟ لا أعرف طبيعة شعور من هو في حالته ، ولكن من المؤكد أنه لا يستطيع مقاومة جاذبية جسد جميل ، ولربما يحتاج جسده لأي هدهدة ، هددتها بألا تبوح بذلك لأي مخلوق كان ، وأن تبدأ في ذلك سريعا

كنت كل يوم أحضرها وأسألها عما توصلت إليه ، وتخبرني بأنها تواصل التقرب منه بكافة الأشكال الممكنة ، حتى رأيت بعيني ما أذهلني

كنت أعرف تلك الغرفة المظلمة الفارغة التى يلتقيان فيها، ذهبت مرة إليها على أطراف قدمى، رأيته يجلس عارى الصدر بينما هى تلحس بطنه بلسانها فى شبق، أدركت منذ تلك اللحظة ومن تغيرات وجهها فى الحديث معى بعدها أنها لا تفعل ذلك كممثلة، وأنها وقعت تحت تأثيره!

ماذا يفعل للنساء ذلك الخصى الحقير؟ كيف يمكن بأى شكل من الأشكال أن يجذب خصى امرأة؟ تأكدت الشكوك بداخلى حول علاقته بالملكة جلنار، اقتربت منى مزيد من المخاوف، ما من رحلة نعود منها أنا وملكنا العظيم إلا وتطلب جلنار من ملكنا تحسين أوضاع العبيد فى المملكة الشك فى خضوع الملكة تحت تأثير ذلك الخصى الحقير أقل أما الخوف منه فلا شك أنه أكبر

أخذ الملك يتضايق لكنه لم يرفض للملكة طلباتها، بل اكتفى أن يظهر استياءه الذى لم يمنعها من مواصلة تكرار تلك الطلبات المزعجة علاقة زهران بجلنار أدخلتنى فى حيرة عدة أيام وتردد يكاد يقتلنى، ماذا علىَّ أن أفعل؟ هل أترك الملك على جهل بالأمور؟ وإن أردت إخباره فكيف أستطيع القول؟ ربما تطير رقبتى إثر كلمة عن الملكة المبجلة. ماذا على أن أفعل؟!

فى ذلك اليوم الموعود نظر إلى الملك بعمق جعلنى أرتعش، وأمر الجميع بالخروج ليسألنى عما بى، أخبرته أنى فى خير ما دام سموه ينعم بالخير، فضحنى صوتى المدوى بارتعاشة؛ فسألنى مرة أخرى، حاولت التهرب مرة ثانية؛ فصاح بعنف آمرا إياى بالإفصاح عما

بصدرى. عرفت وقتها أن نهايتى حانت، ولكن لم يكن هناك مفر، ظللت أحاول صياغة جملة واحدة فى عقلى حتى نطقت

- ربما على ملكنا أن ينتبه قليلا لقصره ويحذر من تأثير أى من العبيد على ملكتنا؛ لئلا تأخذها الشفقة بهم فتحاول تغيير ما لا يجب تغييره

انتظرت السيف يهبط على رقبتى وأغمضت عينى وأصابنى دوار طال بطول صمت الملك، وبعد فترة شعرت أنها الأطول فى حياتى نطق أخيرا

- بكلامك تدان ربما ترفعك تلك الكلمات إلى أعلى أو تهبط بك إلى أسفل السافلين.

عرفت بعدها من أحد الحراس أن فى تلك الليلة حدثت مشاجرة حادة بين الملك والملكة - ربما تكون الأولى منذ زواجهما - حين طلبت منه الملكة مرة أخرى تحسين أوضاع العبيد فى المملكة، تأكدت وقتها أنه بقى لى أيام معدودة فإما أن أقضى على زهران ذلك الشر المستوحش ذى الوجه الهادئ، وإما سيقضى هو على، كانت تلك مصيبتى الأولى

مصيبتى الثانية كانت أشد وطأة

فى ذلك اليوم المشئوم بدأ كل شىء على غفلة دون توقع، لقد نعمت مملكتنا بالسلام طوال مدة حكم ملكنا العظيم، بعد أن خرجنا من حرب دامت أعواما فى القديم بين والد ملكنا والملك قاسم انتهى كل ذلك بحكمة بالغة من ملكنا واستطاع أن يقنع الملك قاسم بتوزيع عيون الماء

الموجودة فى المنطقة الوسطى بين المملكتين، والتى كانت ذريعة الصراع فى البداية، تمت الأمور وهدأ الطرفان بعد أن عانا كلاهما خسارات الحرب وقتل المزيد من كل جانب دون سيطرة كاملة لأحد المملكتين على عيون الماء، بعد المهادنة والتقسيم رضى الطرفان وهدأت الأمور، بل تبادلا بعض الهدايا والزيارات فيما بعد..

اليوم تهطل الكارثة كالصاعقة من السماء لنفيق على رسولنا يأتى من منطقة العيون الوسطى جريحا ومقرا بمقتل ستة رجال من جنودنا هناك فى حاميتنا الصغيرة وأسر البقية، تحول كل شيء وانقلب رأسا على عقب وبدأت اجتماعات ومشاورات لا حد لها تنذرنى بأن الأمور لن تعود إلى سابق عهدها، لماذا عرفت وقتها أن الأمور أسوأ مما تبدو؟ هل هو نذير مسبق؟ راودنى الجنون بأن ذلك الخصى الحقير سبب كل ذلك. ضغطت جلنار مرارا على ملكنا بأن يبدأ بعمل هجمة يستحوذ بها على العيون كلها، وإلا سيجرؤ الجميع على مهاجمة أملاك مملكتنا ضغطها المتواصل شككنى لأقصى حد، خاصة بعد تأكدى من علاقتها بزهران

لماذا يقنعها زهران بذلك؟ وما هو التدبير الخفى عنا؟ هل يمكن لزهران التقرب للملوك، نعم، لقد أصبح دائم الاختفاء وصعبت مراقبته. كنت أكرر تحذيرى للملك بألا يقود أية هجمات الآن، بل ينتظر قليلا حتى يسهل اتخاذ قرار حكيم.

انقسم رجال المملكة بين مؤيد ومعارض لهجمة مضادة نستعيد بها أملاكنا طلب البعض هجمة نستولى بها على منطقة العيون الوسطى بالكامل، بينما الملكة تواصل إلحاحها من جانب آخر

بدأ الجنون يصيبني علانية لأحدث نفسي ليلا لاعنا وسائلا كيف نجعل خائنا خصيا حقيرا يبيت في أمان وسط المملكة أنا الآن في تمام التأكد من خيانته للملك وربما تورطه في أمور أخرى لم نعرفها بعد؟

لم أستطع النوم في تلك الليلة وطلبت لقاء الملك، كانت فعلة جنونية لم أفعلها من قبل أن أطلب لقاء ملكنا في ذلك الوقت المتأخر من الليل. يبدو أنها كانت الليلة الحاسمة، في انتظاره عرفت من إحدى الجاريات المقربات للملكة أن الملكة قد اتخذت لنفسها حجرة في طرف القصر ونقلت كل خواصها إليها، بينما رفض الملك دخول الخصي إليها ثانية.

يبدو أن ملكنا قد شم رائحة الخيانة مثلي وقرر إعدام زهران! كان قلبي يهتز من القلق والفرح في ذات الوقت، وفي انتظار ملكنا شعرت بانتظار النهاية، وأخيرا أتى وقبل أن أنطق بشيء أخبرني أنه يريد إعدام زهران الليلة، طلبنا من الحرس إحضار زهران وظلت تلك الثواني تسري ببطء لا وصف له كعمر متجمد لا تذيبه أشعة شمسنا القوية. تأخر الوقت وأخيرا أتى الحارس وأخبرنا أنه لا أثر له!

كاد الملك يجن وانقلب القصر رأسا على عقب بحثا عن زهران الذي تأكد هروبه واختفاؤه، اقترب مني الملك بعدها وردد

كنت على حق. كنت على حق.

تركني وانصرف بينما أفكر ماذا سيفعل مع جلنار؟ وماذا سأفعل أنا؟

أسماء
(جارية فى قصر الملك الهاشمى)

إن أدركت سر نظراته ربما استطعت الخروج من حوزته.

ذلك الأمرد واسع العينين لا تفكر فى هيئته كى لا تفقد عقلك، ولا تفكر فى انصياعك حتى لا تتحول عبدا

فى بداية الأمر لم أر فيه إلا دمية مدللة، لا شىء تخافه من فقاعة صابون خرجت من حوضها، سريعا ما ستستفزها الرياح وتنهار وتتلاشى حتى أنك لن تعبأ بنثراتها

قبلت عرض الوزير، ما عساه يخيفنى لأرفض البحث وراء فقاعة الصابون، كل ما توقعت بذله قليل من البحث سيجلب كثير من المال من ورائه. بدأ بحثى بسؤال ما عساه أن يشتهيه خصىٌ؟ قليل خبرات الحياة من يبحث فى ممارسة بعينها للجسد عن اللذة، فقط أمثالى من الجاريات يدركن ذلك، ويبحثن عن لغة كل جسد وإن ظنه الظانون مبتورا

كان حظى سعيدا ؛ فجاريات حمام الملكة هم الأقرب فى كل شىء. التطلع إلى أجساد الملوك سر لا يباح به إلا لصفوة الصفوة، كنز كنوز الملوك يفضح حين يتجردون من أغطيتهم، لم تسألنى الملكة كيف عرفت قبلها ما لم تدركه هى عن زهران ؛ فأنا لم آت معه ولم أسبقه بالكثير لأعلم ما حدث من طلب الملكة له، القليل من البحث عن خصى كفيل بأن أنساق وراء تفاصيل حكايته، ما كانت لتلتفت لذلك أبدا، هى تابعت فضولها وأنكرها ذكاؤها وكان حليفى أنا

تزداد فى ذاكرتى المغانم. وبعد ذلك الفضول من الملكة لم يعد المال وحده مغنمى، انتصارى عليها بالحصول على الجزء الأكبر فيه يساوى عندى مغنم المال، كلما رمقته خلال قوارير عطورها غمزت له ليزيح نظراته عنها، كانت عيناه باردة بلا استجابة، تزيدنى معرفتى بماضيه رغبة فيه، أحاول جعل هدفى رغبته هو فيما أستطيع جلبه، ربما تذوق طعام الملوك خلسة وأراد منه المزيد، بالطبع سيوفر لى الوزير ما أطلبه - أقصد ما يطلبه - ربما أراد الشراب وخاف عواقب اقتحامه من جاهل به، ربما اختلس النظر لفراش الملك ولمتاعه، سيطلب جسده ما يحتاج بكل تأكيد. زهران، أقصد الخصى.

***

جلنار

لم أصدق يوما أنى سأضع أذنى للعبيد والخصيان، بدأت أولا بالبحث عن ماضيه، ولم ينقطع تفكيرى بعدها، عرفت أننى سأبدأ الحديث معه وأن مُلكا بدأ فى التخلى عنى منذ بداية حديثى فعلا

- ما اسمك؟

- زهران مولاتى.

هل نسى أنه عبدى، أنه خصيى، أنه مملوكى، أم نسيت أنا أنى ملكته؟" لم أكتف بمواراة حديثى معه فى الحمام، بل اصطحبته كذلك إلى غرفتى، بالطبع لم يكن لذلك أى معنى هو فقط خصى بلا أدنى شك لم يكن حديثه حديثا يخالف ما توقعته منه، وربما لم أتوقعه أصلا أنا أسأل هو فقط يجيب، لم يكن عبد الخزانة بمدعى؛ زهران حقا يمتلك تلك الحكمة التى تجعل من إجابته سؤالا لابد أن أسأله....

زادت حكمته أمامى، كما علمت من زهران فإن العبيد يعانون أكثر مما تعانى بهائمنا، بدأت أسئلتى عن مزيد من قصص العبيد.

حكايات الأسر حكايات الخصى الاعتداء والقتل التشويه والذل. هل يستحق العبيد أن يصيروا عبيدا؟ هكذا انتهت أسئلتى له بسؤالى لى

دافعت عن خصى أشد ما يكون دون أن أرى سببا يقال، تكفى لى نظراتك دائما لتحقيق المزيد، وفى الحقيقة كنت أعلم أن "الزرقان عين خلقت لترمق أنفاسى، لم أكن لأهمل تلك الأفعى أبدا، ظننت أولا أن تعنيفى للملك وسبى لذلك الظل الأسود يكفى لإبعاده عنى. أه بالطبع رأى ما لم أكن أراه، ليتنى لم أفعل

بعد عدة مشاورات مع الملك حول تحسين أحوال العبيد قرر أن يترك لى الأمر برمته؛ فكما أشرف على رعاية حيواناتى المدللة يمكننى كذلك تفقد أحوال الرعاع لأحقق ما تتطلبه رقة الملكات و قال إنه سيفاخر بذلك أمام الملوك. هكذا زعم فى بداية الأمر وهكذا بدأت أنت فى أسرى أنا عند ظل الأفعى وبدأت يا زهران طريقك

يا زهران لم أكن أعرف أنك تستطيع جذبى إلى ما تطلبه أنت أنا من طلب منك تفقد حال العبيد فى المملكة، وطلبت منك إخبارى بحالهم. أذكر أول ثرثراتى مع الملك بادعائى أنى سأرسل مملوكى الخاص، صاحب الأنف التى تميز عطورى المفضلة إلى أسواق القبائل ليبتاع لى العطور، أذكر خطتى لك فى الخروج لتفقد العبيد

وأنى كنت قافلتك الأولى التى ضللتها وسلبت كنوز ملوكها

بدت لى مروياتك فى ازدياد، لم أكن أعرف أنك تكون جيشك المزعوم، أنت أردت العبيد لك، نعم، لم تكن لتشترى العبيد إلا بحريتهم. زعمت لهم الحياة وطلبت من الزرقان تحريرهم جميعا وتسليمهم لك هكذا تصبح أنت الإله الجديد إله العبيد!

***

أسماء

الجاريات يعرفن ما لم يعرفه الملوك والملكات عن ممتلكاتهم.
أنا من اختار تلك الحجرة المظلمة البعيدة عن ضوء الأعين لتصبح لى ولك.. لتصبح حمامك الملكى.

جاريات القصور يتفوقن فى كل شىء كلما أذكر أنى استطعت جذبك والانتصار على صاحبة ذاك القصر، زاد جلدى نعومة وأحسست ثقل التاج على رأسى، أنت حققت لى الانتصار بعد أن وافقت على الحديث معى ليلا فى حجرتى المختارة.

***

الزرقان

أعوام الهدوء قد مرت ولم يتبق لنا سوى لحظات أخيرة إما نستعيد فيها كل ما قد فقد، وإما نواصل الخسارة حتى الموت!

أعرف الآن أن الأمور كلها مرتبطة بالخصى الحقير زهران، سواء عرفت تفاصيل ما يحدث أم لم أعرف. لا يوجد الآن مجالات للمصادفة. هرب زهران فى تلك الليلة والمملكة تتأجج قلقا، الملك يبدو للمرة الأولى بلا هدوء أوحكمة. علمنا عن منعه للملكة من كل امتيازاتها ومنعها من الخروج من القصر بأى شكل، وأنه بدأ يتوحش حتى أنه أعدم فى الأيام الأخيرة اثنين من العبيد شك فى ولائهم. وكأن مسا من الجنون والموت يصيب كل من يأت فى دائرة ذلك الخصى الحقير الهارب.

استمرت المشاورات مع الملك حول الموقف فى منطقة عيون الماء أخبرنا ملكنا أن الصمت على هذه الهجمة يعنى بداية لهجمات أخرى كثيرة قد تصيب المملكة فيما بعد، بالتأكيد هم يتوقعون هجومنا ويعدون له، أضفت أنه يجب أن تكون خطتنا لا تشمل هجوما مباشرا حتى لا تتضاعف الخسائر

بدأ الخصى فى اختيار قتلاه، أحد قادة الجيش تم قتله منذ أيام ليلا فى بيت إحدى الراقصات، لم يعلم أحد شيئا ولم تبح الغانية بشيء تعثرت إحدى الغنمات يوما بآخر مقتول بخنجر أفرغ أحشاءه خارجا، واعتدت بعدها سماع مثلها مرات حتى انتشرت حمى الجنون فى المملكة، لم يرغب أحد فى الخروج زاد خوف الأحرار من العبيد، تلك الحثالة العفنة أرهبت مالكيها

أرقب من بعيد وأرى آثار حمى زهران الجنونية التى أطاحت بالكل، رعشة كانت تصيب جسمى بينما أرى ذلك الخصى يدمر المملكة فى هدوء، رأيت كم من الرجال يفقدون رجولتهم أمام خوف الموت المجهول، من يتعقل الموقف تنتابه مهانة؛ فالموت دون شيء يقودك للجنون، حاولت التكلم مرات مع ملكنا إلا أنه فى المرة الأخيرة طردنى من حضرته بعدما حاولت إقناعه بالتراجع عن بعض قراراته، انساق هو الآخر إلى جنونه، ونظم على عجل تلك الحملة لاسترداد العيون. أخبار الدماء جاءت أسرع مما تخيلت، لم تصل الحملة إلى مكان العيون بل التقطتها عيون العدو فى الطريق ولم تبق على أحد منهم سوى فارس واحد ليعود بالهلع إلى المملكة ليزيدها جنونا.

الملك الآن على يقين بالهزيمة، وربما تمنى الموت مرات صامتا قبل أن يذل أمام خصى، عرفت كذلك أن دورى قد حان وأن الخصى لابد منتظرا فرصة قريبة تشبع أعماقة فى إذلالى قبل قتلى.

***

ضبيعة
(الوزير الداهية)

فى البداية كنت على وشك قتل ذلك العبد

لم يفعلها أحد بهذا الشكل ولا بتلك الشجاعة، وربما أجبرنى هذا على التفكير والتمهل بعض الوقت، لا يجرؤ أحد على تحدى الملوك فكيف بعبد أن يفعلها بشجاعة؟ أخبرنى أنه يملك معلومات الانتصار على الملك الهاشمى ، أخبرته أننا نريد فقط عيون الماء ولا شىء يلزمنا أكثر من هذا نظر إلى بعمق وكأن عينه تقول

- وهل يستطيع أحد الاكتفاء والتوقف؟

شعرت أنى غصت للحظات داخل عينه العميقة كالبئر بلا قرار أفقت من خيالاتى وسألته عما يستطيع أن يساعدنا به، وما ضمانات صدقه وما دوافعه لخيانة ملكه؟

لم يجبني كاملا، أخبرني أن لكل أسبابه، وأنه يستطيع عمل خطة كاملة معي لتدمير تلك المملكة تماما، إن أخبرني آخر بهذا فربما ضحكت مدة طويلة واتهمته بالخبل، ولكن شيئا ما في عينيه يجبرني على الإنصات، هدوء عينيه وبرودة نظراتها وشت لي بكثير موت سيجلبه.

تحفظ على العبد المدعو زهران وأخبرت ملكنا بعروضه، قابله بنفسه وسمع منه كل خططه التي لم يكشف عن تفاصيلها واشترط أن نوافق أولاً على طلباته كاملة، كاد الملك أن يقتله لغضبه من كبرياء نظراته إليه، هدأت من روعه وأخبرته أنه إن صدق ذلك العبد فربما تنتظرنا ثروات لم نحلم بها من قبل، وإن كذب فهو بين أيدينا ونستطيع قتله في لحظة وإلصاق التهم به أمام الملك الهاشمي والعودة لعهودنا.

ظللنا نفكر ليوم كامل، أرى كيف ابتلعتنا أحلام الثروة بالكامل لتغير مصيرنا ومصير مملكة أخرى في أيام. كل ما حلمنا به هو الاستيلاء على تلك المنطقة من عيون الماء، العبد أظهر لنا الحاجة إليها بعد توسعنا وزيادة أعدادنا في الفترة الأخيرة، ولكن أن نمحو مملكة كاملة من الوجود فهذا ما لم نفكر به قبل ذلك، العداوة القديمة بيننا أشعلت الأمور، وعينا ذلك العبد ابتلعتنا بالكامل حتى ظللنا ذلك اليوم نرى مشاهد الانتصار والثروة، أطماعنا جعلتنا لا نهتم كثيرا بمقاصد ذلك العبد.

شروطه كانت أن نوفر ملجأ لعبيد مملكته، وأنه في حالة تدمير المملكة فلا نمد أيدينا على أحد من العبيد ونسلمهم كلهم إليه بعد

تقديمنا الجياد والطعام لهم جميعا وتحرير الجميع لينطلقوا إلى حالهم فى الصحراء تعجبنا من محرر العبيد هذا ولكننا وافقنا وأعطيناه كلمتنا فبدأ فى شرح خطته بالكامل.

ذلك المدمر عجيب للغاية، كنت أرى المشاهد تنساب أمام عينى بينما هو يحكى بصوته المخنث فى هدوء ونظام، ستبدأ القصة بمراسلات سرية بينه وبين بعض العبيد هناك فى مملكته بوسائل هو قادر على خلقها من أجل إقناعهم بالتعاون معنا لقاء تحريرهم. سيبدأ بعد ذلك توفر معلومات حول قادة الجيش الذين سيتم قتلهم واحدا تلو الآخر انتهاء بالوزير الزرقان مما سيؤدى بالمملكة إلى الفوضى والخوف وشلها شللا تاما، بعد ذلك وفى موعد محدد سيتم الهجوم ليلا على المملكة عبر تسلل عدد محدود من الجنود من منطقة ضعيفة الحراسة على أسوار المملكة، وحرقهم أحد المخازن الرئيسية للتبن وحظيرة الجياد. النيران ستؤدى إلى ركض الجياد وفوضى شاملة وسيشعر الجميع أن العدو قد اخترق صفوفهم، وفى ظل تلك الفوضى الشاملة سيتم الهجوم من الداخل على أضعف البوابات وفتحها أمام جيشنا المنتظر فى الخارج فى ظلام الليل، وفور الدخول سيتم تدمير كل شىء وسيتم تسليم المملكة لنا بالكامل.

شعرت بالنيران تتحرك أمام عينى بعدما انتهى من حديثه، لم أنطق كلمة واحدة، ونهضت وذهبت إلى ملكنا وبعد إخباره بكل شىء انتهى بنا الأمر إلى اتخاذ القرار بالموافقة بعد تفكير دام يومين كاملين.

حسنا... سنرى إلى أين سيرشدنا ذلك العبد.

***

بكر

لا أستطيع التفكير بمفردى، ولكنى أعلم أن خلاصا سيكون فى اتباعك.

لقد فقدت كل شيء فى عمرى يا زهران ولم يتبق لى سواك، لا أجرؤ على اتخاذ القرارات، أغوص فى بؤس منتظرا إشارة نجاة من خلفك حتى وإن كان العنف يظللها لا مفر من المواجهة ولكن تلك المرة سأساندك حتى الموت، اتبعت تعليماتك كاملة، لا أستطيع نسيان كل تلك التفاصيل منذ اليوم الذى تم أسرنا فيه ثم بيعنا للنخاس الحقير عفار ثم شراء تميم لنا وإرساله لنا هنا، وكأن الأحداث تسير بترتيب الآلهة نحو دمار تلك المملكة

أنظر إلى الأسوار مليا الآن فربما تكون المرة الأخيرة، فإما أن تنهار تلك المملكة وإما سنقتل، وفى كلتا الحالتين سأكون راضيا،

أنت وحدك من تستطيع جذبى يا زهران، أبدو كالمخبول عندما تتكلم فيصمت كل شيء سوى صوتك الذى لا يبارح رأسى ونظرة عينيك لا تفارق عقلى لقد نجوت أنا من الخصى وتم خصيك يا زهران ولكنك أصبحت وحدك المدبر، خدع الجميع بذلك الجسد الواهن، من أدرك خشونته فقط نحن زملاءه عبيد تلك المملكة المنحوسة

مع أول ضربة سوط لامست ظهرى عرفت أنى لن أكن لهذا المكان سوى الكراهية. حاول زهران فعل كل شيء وتقرب إلى الملكة جلنار وأقنعها بتحفيز الملك على تحسين أوضاعنا، ولكن كل شيء ذهب فى طرفة عين، وعاد الجميع إلى عدوانيتهم، فى يوم ما كنت حرا أرعى غنماتى لا أعرف شيئا عن شر هذا العالم، أما اليوم فسأسير خلف زهران نحو الانتقام.

بعد أيام من هربه من هنا شعرت أنى سأموت، فقد كان عزائى الوحيد فى غربتى على تلك الأرض، ولكنه لم ينسنى، لم تمر عدة أيام حتى وجدت إحدى الرسائل مدسوسة لى فى غرفتى، عرفت من قراءتها أن أحد العمال فى مطبخ القصر هو أحد رجال الوزير الداهية ضبيعة، وعن طريقه وصلت رسالة زهران إلى شعرت أن أنفاسى تعود لى من جديد قرأت الكلمات كلمة كلمة وحمدت الآلهة فى ذلك اليوم على معرفتى القراءة. تقريبا كنت الوحيد الذى تعلمتها وسط بقية أصدقائى فى قبيلتنا تم هذا بصدفة غريبة عند مرور أحد التجار وإقامته عندنا لشهرين كاملين علمنى فيهما مبادئ القراءة،

حتى زهران لا يتقنها رغم علمه الغزير عن هذا العالم، كتب لى أنه أملى تلك الكلمات لأحدهم وأنى يجب أن أرسل له الرد مع ذلك الرجل الذى يعمل لحساب ضبيعة، أيقنت أن كل ما يدور بالمملكة لم يأت مصادفة وأن فم زهران الآن يملى

وجدت نفسى أمام اختيارين لا ثالث لهما إما أن أرفض كل ذلك وأعيش بمفردى عبدا بائسا هنا وحيدا حتى الموت بعد ابتعاد زهران إلى الأبد، وإما أن أقبل ما كتبه زهران وأخاطر بالموت لأكسب حريتى.

حسنا يا زهران أنا أوافق، هكذا حدثت نفسى وقتها وانتظرت إتمام كل ما اتفقنا عليه، قمت بحشد عدد كبير من أنصارك من العبيد حلم الحرية يبرق أمام الأعين تحت قيادتك، نفذنا كل ما أرسلته لنا من تعليمات، حتى دب الرعب والفزع فى المملكة بكاملها إثر قتل العديد من قادة الجيش، رأيت بعينى ماذا يفعل الموت فى الناس يركضون كالمجانين هروبا من مارد الموت بلا فائدة، وأقترب أنا من حريتى.

حسنا ها هو اليوم الموعود قد أتى ولحظة الاقتحام قد حانت، أنا واقف أمام تلك البقعة المتفق عليها أمام الأسوار فى انتظار جنود ضبيعة الذين سيهبطون من تلك البقعة، لا شك أنهم قد اقتربوا لا شك

***

جلنار

لم يغفو الملك منذ الخبر المشئوم. أن تعرف أنك المنهزم يقودك إلى سكرة ما بعد الجنون. تجمد الملك على الفراش البعيد عن حجرته دون أن يقتلع قداسة ملكه نظراته تفضح انتظاره للهلاك، لم تكن تلك المؤامرة كسابق عهده بالمؤامرات، الاستيلاء على الماء انتصار تنشده الممالك كلها وتدور دائرته على الجميع دون استثناء، أما الاستيلاء على الملوك احتقار لا يغفره الملوك إلا بالموت.

كان ظل الأفعى محقا، لم يكن الأمر يتعلق بالامتلاك فقط، إنه زحف عاصفة الجراد لا يسعها سوى التدمير وإن ثقلت بطونها زروعا

رحت إلى زهران. الآن أصبحت عدوا وقائدا وحرا لا أدرى

ماذا ستصنع نظراتك أيضا ، بالطبع ستعطى الملك درسا وستخلصنى من عار الاستعباد . ستجعله يحكم بالعدل وربما تجعل لمشورتى خطوته الأولى أنا فى انتظار الجديد منك يا زهران .

***

ضبيعة
(الوزير الداهية)

لم أشعر بالخوف مثلما شعرته فى تلك اللحظات التى قضيناها فى الظلام الدامس. كيف لنا الانصياع لهيئة غير كاملة الرجولة ناعمة الصوت كالنساء تحمل كل ذلك التدمير

مرت الأيام منذ اتفاقنا وموافقتنا على خطط الخصى زهران ليبدأ فى إرسال رسائل سرية إلى زملائه من العبيد يحرضهم على إرسال المعلومات لنا من أجل تحريرهم، عرفت أنه يعتمد على أحد العبيد هناك يسمى بكر، وربما هما من نفس القبيلة فى الأساس، لم يجبنى أبدا زهران عن أسئلتى حول تاريخه وكيف تم أسره أم هو ولد بالعبودية، كبرياؤه لا يدرك كونه عبدا! وربما لن يصبح عبدا بعد ساعات قليلة.

تمت الخطة كما المتوقع واستجاب البعض تدريجيا لزهران حتى أصبح يملك عددا كبيرا من الأتباع، بدأت المعلومات تنهال ومعها

الاغتيالات، قادة الجيش تم اغتيالهم واحدا تلو الآخر بيد بعض العبيد حتى تحولت الأمور إلى فوضى عارمة، وهذا ما كنا نريده، في ظل تلك الظروف نستطيع رشوة البعض من الحراسة ونستطيع السيطرة، تم شلّ الجميع بالخوف حتى لم يعودوا قادرين على الحركة.

ها نحن الآن في الليلة الحاسمة راقدين على مقربة من الأسوار في ظلام الليل منتظرين اقتحام مجموعة صغيرة من الرجال لجزء من الأسوار كانت مغامرة مجنونة أن ننطلق في الليل البهيم نحو المملكة، ناقشنا الأمر مئات المرات وخفنا من التيه في الصحراء ولكن في كل مرة كان زهران يؤكد لنا أنه يحفظ تلك الدروب بالكامل، وصلنا بالفعل، تحركت المجموعة المتفق عليها نحو تلك المنطقة من السور، كانت تلك المنطقة لا يحرسها سوى جنديين نظرا لبعدها وعدم أهميتها، تمت رشوة الجنديين وتسلق الرجال الأسوار ليجدوا بكرا في انتظارهم، أو هكذا كان المفترض أن يحدث. أنا لا أعرف ماذا حدث لهم أو كيف يتم الأمر معهم. كانت الدقائق الأطول في عمري بينما في ضوء القمر المتسلل أرى عيني زهران وهو يبتسم ابتسامة خفيفة، زاد توتري إلى المنتهى وقررت أن أتراجع بأي شكل وشعرت بأني محصور وسط كمائن من الخيانة.
سرعان ما نبهتني الإشارة المتفق عليها، شعلة نيران كانت تعلو فوق أحد الأبراج بشكل واضح كما اتفقنا، نهضنا وركضنا سريعا عبر تنظيم صفوفنا لنقترب من أحد أبواب المملكة وما إن اقتربنا حتى

بدأت الأبواب فى التحرك، لم أصدق عينى ووجدت كل النيران التى كانت فى خيالى تقفز أمامى، أمرت بالهجوم ليبدأ الفرسان ومن خلفهم المشاة فى الدخول إلى تلك المملكة البائسة.

لا مفر الآن من التدمير

***

الوزير الزرقان

على عكس الجميع كنت.

استهنت بالحراسة ولم أزودها ولم آخذ حذرى كما الآخرين، علمت أن هذا الجنون هو وسيلة ذلك الخصى فى الانتصار، إنه لا يريد التدمير فقط، بل التلذذ بجعلنا مجانين نركض هنا وهناك خوفًا من الموت والرعب، لن أجعله يحصل على هذا، كنت أسير كل ليلة من القصر إلى بيتى منتظرا الخنجر يغوص فى ظهرى أو رقبتى، ومع الوقت علمت عن الموت ما لم أعلمه من قبل، تحطم كل شىء أمام عينى وفقد الجميع عقولهم وانتزعت الحكمة من الملك الحكيم فى غرابة شديدة، أكان كل ما مضى هو وهم فى انتظار مجىء ذلك الخصى يرفع عن تلك المملكة كل تلك الأوهام عن الحكمة والإخلاص؟

شعرت أني أزداد حكمة وأنمو مئات الأعوام في لحظات قصيرة، ومواجهة الموت اليومية أودت بي إلى السكينة لا الجنون، تتابعت الاغتيالات والقرارات الغريبة لملكنا حتى تم القضاء تدريجيا على المملكة بينما أنا في انتظار متى سيأتي دوري؟ كنت أظن أني سأكون الضحية الأولى، ولكن يبدو أنه يريدني أن أنتظر لأنظر بعيني ماذا يفعل.

في تلك الليلة لم أستطع النوم مطلقا، وكأننا على موعد، أول ما سمعته كان صهيل الجياد، ارتديت ملابسي وتقلدت سيفي وخرجت وسرت قليلا في اتجاه القصر وفي طريقي رأيت الجياد تعدو في جنون والنيران مشتعلة في كل مكان عرفت أن تلك الليلة هي المنشودة. استيقظ الجميع وركضوا في كل ناحية لتبدأ الاشتباكات، لا أعلم كيف ومتى استطاع كل ذلك الجيش اقتحام مملكتنا في ذلك الليل، كنت مختبئا أتحرك من بقعة لأخرى أرى كل جنودنا يذبحون بي سهولة ويسر عرفت أنهم سيأتون إلى القصر في غضون دقائق. بدأت أركض من حائط لآخر تجاه القصر، استللت سيفي واقتربت من البوابة الرئيسية لأجده واقفا أمامي الخصي الحقير

تميم
العامل فى بلاط الملك الهاشمى

عدت إلى الخلف وتقدمت إلى الأمام فى لحظة واحدة حتى لم يعد هناك زمن سوى ومضات من الجنون.

اختلطت الرمال بعفار النخاس بملكنا بزهران بجلنار بضبيعة الداهية ووجدت الدماء تغطينى بلا جروح، وعينى زهران تبرقان بذلك الهدوء القّاتل بينما يقطع ذراع الجلاد أمام الزرقان المتجمد فى ذهول أمام باب القصر

من أين أبدأ وإلى أين أصل؟ لا أعرف ولا أدرك شيئا أنا تميم الطيب الذى لم يكن بيده شيء طوال العمر شاركت فى تلك اللعبة المفزعة دون أن أدرى. حركتنى إرادة عبثية من سنين طويلة حتى أتيت بذلك الخصى الذى لم يكن خصيا فى الأساس. من المسئول ومن المشارك ومن المخدوع فى تلك اللعبة؟ ومن أين تبدأ

الأمور؟ هل تبدأ منذ ذلك اليوم الذى فكر فيه ملكنا بالتزوج من جلنار أم منذ ذهبت فى رحلتى حتى أتيت بزهران؟ أم من أين؟

شاءت الأقدار أن أبيت تلك الليلة الأخيرة داخل القصر، فمنذ انقلبت الأمور فى المملكة وأنا أقضى الليالى داخل القصر فى دور العبيد؛ حتى أستطيع السيطرة عليهم جميعا وسط ذلك الجنون، نظرت النيران ودب القلق فى قلبى وشعرت أن اليوم سيكتمل بالجنون والانتقام، سمعنا أصوات الخيول وهى تركض هلعة من النيران فى كل مكان، ولم يمتد الوقت كثيرا لنرى الجموع الهائجة من جنود ضبيعة الداهية تقتحم الأسوار وتقترب من القصر لم تصمد مقاومة الجنود كثيرا وكأن أشباح العالم كلها تطاردهم وبدأت المجزرة بقيادة زهران

أصابنى التجمد بينما أنظر من نافذتى الصغيرة، بالطبع حاول الكثير الهرب، ولكنهم ماتوا قبل أن تطأ أقدامهم خطوة خارج القصر العبيد الذين فتحوا أبوب القصر يندسون كذلك، رأيت بكر فى مقدمتهم وعرفت فورا أن الحبكة أكبر مما تصورت، خرجوا جميعا بقيادة بكر وانضموا للجنود وأرشدوهم إلى كل المخابئ، انتظرت تلك اللحظات الأخيرة قبل الموت فى سكون. فقط أنظر من نافذتى

جاء العبيد بجلاد القصر الذى طالما أذاقهم الجلدات ورموه على السلم الخارجى، وفى تلك اللحظة حضر الزرقان الغبى وكأنه تخيل أنهم لم يصلوا بعد للقصر، من تعجله وغبائه لم يلحظ الجنود

الواقفين على مقربة منه واستمر فى الاقتراب من الباب حتى رأى زهران فى انتظاره. صمت الاثنان للحظات ولم يقترب أحد من الزرقان، وفى لحظة واحدة هبط سيف زهران على ذراع الجلاد المرمى على السلالم؛ لتنفصل ذراعه ويلقى بها زهران أمام الزرقان مباشرة..

لم ينطق أحد سوى الجلاد الذى كان يصرخ من فرط الألم، تابع الزرقان وزهران النظر دون الكلام، ولم تمض دقيقة أخرى حتى هبط السيف مرة أخرى على الذراع الأخرى ورمى بها زهران مرة أخرى أمام الزرقان مباشرة، كان الزرقان متجمدا لا يتحرك قيد أنملة، لا صوت سوى صوت الجلاد المتألم حتى الموت ظل الجميع على حالهم حتى سقط الزرقان ركض بكر ناحيته وتفحص جسده ليخبر زهران

- لقد مات

أومأ زهران برأسه لبكر ثم أعطى الجنود الإذن بحركة من يديه ليكملوا اقتحام القصر، كادت عينى تنخلع من جحوظها ولم أتحرك أنا الآخر منتظرا النهاية.

ضبيعة
الوزير الداهية

حسنا علينا أن نتم الأمور سريعا

رأيت بوضوح حقيقة ما نفعل فى تلك اللحظة التى قطع فيها زهران يد ذلك الجلاد أمام الزرقان. رأيت بوضوح انسحاب الحياة من عينى الزرقان حتى مات إثر استسلامه للرعب والخوف

رأيت كيف نستطيع تدمير حيوات الآخرين. رأيت بوضوح ماذا حدث فى الزمن القديم عندما قتلت أمى على يد ملك تلك المملكة الحقيرة السابق والد ذلك الملك الضعيف.

رأيت كيف يعود الزمن ويعطينى فرصة أن أدمر تلك المملكة بإيحاء من زهران. رأيت كيف يمكن لنا أن نعبث بمصائر الآخرين. رأيت!

د. العالم على جمدى - الهيئة العامة لقصور الثقافة

حسنا ها هو الزرقان يسقط وبكر يركض تجاهه ويخبر زهران أنه مات، شعرت بأنى أستلم تلك الطاقة الجهنمية من عينى زهران الجهنميتين، وأشير لجنودى لنركض تجاه القصر، اقتحمنا الأبواب، ومزقت سيوفنا من مازالوا يحتمون بالداخل. طارت الأعناق والأطراف والدماء وسط صرخات وحشية. ذقنا بلساننا طعم الدماء من على سيوفنا واعتلى البعض من وجدوهم من النساء. كانت الضوضاء الأكثر صمتا عندما يعلو الصخب والضجيج حتى المنتهى تشعر بأنك وسط هدوء قاتل

مضيت أبحث عن الملك وزوجته المختبئين حتى وجدتهما، وجدناه يرفع سيفه كالفأر فى زاوية الغرفة مرتعبا ومن خلفه زوجته جلنار، لم أتحرك وتركت جنودى ليقتلوه فى لحظات معدودة. لم يكن قادرا على رفع سيفه بطريقة سليمة من فرط الخوف والإذلال. ذبحوه أمام جلنار الغائبة فى الذهول. أمرتهم ألا يقتربوا منها نظرت لها طويلا إلى أن شعرت بأحدهم واقفا بجانبى. نظرت له فإذا هو زهران.

لا يمكن لعاقل ألا يلحظ كيف كانت تنظر له، شعرت بتلك النظرة بوضوح، فى حين تدفعنى رغبة جامحة فى الانتهاء، توجهت صوبها ومزقت ملابسها قطعة قطعة حتى وقفت عارية تماما ظلت تنظر إلى زهران بينما أنا أستعيد مرأى أمى المذبوحة وألج جلنار بعنف وأطعنها أخيرا بسيفى بعد أن انتهيت منها، نهضت شاعرا بجبال تتراكم على أكتافى من المشاعر، نظرت صوبه مرة أخرى

فوجدت وجهه ثابتا كما هو تسلل الجنون إلى رويدا رويدا وكدت أن أواصل القتل لولا أنه انصرف من أمام عينى، خرجت من القصر وظللت أنظر طويلا صوب الأبخرة تتصاعد من السماء إثر الحرائق الممتدة فى كل مكان فى تلك المملكة.

***

جلنار

تباعدت الأبخرة من حولك الآن. فقط تشير إلى حليفك بنظراتك المعهودة. تجمدت فى مكانى واعتذرت للملك ولوزيره ولنفسى. وأردت الموت كالملوك رعبا من مصير ستكتبه لى إن بقيت لى الحياة ها هو الضبع يقترب من فريسته، أغمضت عينى. أعرف أنه من غير المعتاد أن يلمس أحدهم ملكة حتى وإن كانت مهزومة، ولكنى شممت رائحة التدمير تنسل من زهران وتعبق المكان كله، رأيته قبل أن يمد يده ذلك الضبع يفعل ما سيفعله، أغمضت عينى ومزق ملابسى وانتظرت النهاية، توسلت فى داخلى أن تأتى النهاية سريعا، فتحت عينى للحظة ونظرت زهران ينظر إلى بعين ثابتة، لم أشعر بشىء وتوقفت الأصوات من حولى وشعرت أن كل شىء يمر ببطء شديد. أنياب تغوص فى

لحمى لا أشعر بها حلقت عاليا ورأيت المشهد من أعلى. أشعر بالموت قبل أن أموت حتى الصرخات لم تكن من جراء ألم أشعر به هى صرخات الحسرة والموت قبل الموت.

ماتت قبل أن تموت بلحظات بعد أن نظرت عينى زهران..

***

بكر

انطلقنا كالسهام خارجين من القصر، كان زهران بجانبى ووجهه يكاد يدمع للمرة الأولى، لم أر ما فعله ضبيعة وجنوده فى القصر، ولكنى سألت زهران عندما هبط السلالم إلى المدخل حيث كنت أنتظره فأخبرنى أن كل شىء قد تم. نحن أحرار الآن.

أخذنا بعض الجياد ولحق بنا كل من ساندونا من البداية وخرجنا من مملكة مشتعلة بالنيران، قبل أن تخرج الجياد من محيط القصر سمعت صوت ضبيعة ينادى بصوت جريح كالمجنون على زهران ولكنه لم يلتف له وأشار لى أن نسرع، خرجنا كلنا مسرعين بعد أن حملنا غنائمنا من المملكة المنهوبة إلى الصحراء.

تذكرت تلك المرة خروجنا الأول إلى الصحراء كنت بصحبة زهران أيضا نهرب، أما الآن فنحن سادة الصحراء، عرفت ذلك بعد

مرور عدة أيام، قام زهران بالتخطيط بشكل مدهش لكل شيء، قسمنا إلى مجموعات صغيرة لكل مجموعة قائد مسئول عن التخييم والحركة. كانت خطته واضحة من البداية. الهجوم على كل قوافل النخاسين وتحرير العبيد والاستيلاء على الغنائم، لم تمر عدة أيام حتى بدأنا هجومنا الأول، لم يصدق العبيد أنفسهم حينما أطلقنا حريتهم، والبعض منهم تبع زهران وانضم لنا، كانت أيام غريبة، زادت هجماتنا مع الوقت وزادت غنائمنا وأيضا أعدادنا، بقدر نجاحنا المتواصل بقدر ما ازداد زهران ابتعادا

كان يقضى معظم الوقت بمفرده لا يكلم أحدا إلا فى أقل الحدود، يخرج بمفرده فى جولات فى الصحراء ليعود لنا كما هو ازداد غموضا وابتعادا حتى بدأ بعض الرجال فى تكوين حكايات تحولت بعد ذلك إلى أساطير عنه. حولوه إلى إله لتلك الصحراء محرر للعبيد وواضع نواميس وشرائع وأنظمة، بقى بريق عينيه كما هو ذلك ما تبقى منه، وغير ذلك اختفى بلا عودة ليحل مكانه زعيما غامضا لا يعرف أحد عنه شيء، لم يمزق هدوء جماعتنا سوى قتل زهران لأحد الرجال بعد أن اكتشف خيانته، أخبرنا فى ذلك اليوم أن ذلك الخائن اتفق مع عفار النخاس وأبلغه ببعض المعلومات عن أماكن تحركاتنا ليبعد العدة لقتلنا جميعا، صمت الرجال وأصابهم الوجوم، البعض خاف جدا بعد أن رأى زهران يقتل ذلك الرجل، والآخرون أدركوا حجم الخطورة التى يواجهونها، كانوا قد ظنوا أن ما يفعلونه سيمر دون عواقب، ولكن تدمير تجارة الرقيق فى المنطقة لابد أنه أصعب مما تخيلنا.

منذ ذلك اليوم بدأ كل شيء في التغيير لم نقم في مكان واحد لليلتين متتاليتين أبدا، ظللنا نتحرك كل يوم ونقيم خيامنا في أماكن مختلفة، اقتربت تلك الفترة من زهران مرة أخرى بعد أن أكثر من محادثاته لي، وأخبرني في الليلة الأخيرة قبل الهجوم

حان الموعد يا بكر لي حساب قديم مع عفار النخاس لابد من تصفيته.

رأيت أمام عيني تلك العملية البشعة التي أتمها عفار منذ زمن طويل في زهران وعرفت ما نحن مقبلين عليه، شعرت بالخوف من نظرة عينيه وأخبرته أني معه طوال الوقت ولن أتركه أبدا، بدأنا التخطيط سويا، كان يتكلم وأنا أرى في عينيه ما يحكيه وأعرف أن بمجرد نطقه للكلمات تصبح حقائق. إنه يخلق بخياله واقعه أعرف ذلك جيدا

عفار النخاس

طال انتظارنا فى عمق الصحراء.

طال انتظارنا لانتصار يعيد لنا ما كنا فيه، وجدتنى رغما عنى أتذكر كل شىء. فى البداية لتمضية الوقت ثم بعد ذلك للتحرق على حياة فارغة، أشعر بدبيب الموت يقترب منى بينما أنا لا أملك فى قلبى سوى الخوف، أزداد يقينا باللاجدوى والفشل، والخوف وحده يبقى مسيطرا، نظرت إلى وجوهه وهم يرقدون بجانبى على الرمال فى انتظار مرور زهران وعصبته وإتمام القتل الأخير، ما بال وجوههم تبدو غريبة لى؟

أرتعب خوفًا ويطول انتظارنا وكلما يمر الوقت لا تستطيع يدى أن تمسك بالسيف.

تضخمت كوابيسى وارتفع صوت الرياح ورأيت الأشباح تحيط بى من كل جانب.. جحظت عيناى ومسحت الدماء من على جبينى.

لم يطل زمن كوابيسى حتى بدأت بالتحقق. رأيت سهما يخترق عنق التاجر الراقد بجانبى تماما، شهقت ونظرت إلى كل جانب لأجد دائرة كاملة تقترب من الفرسان، لابد أنهم عصبة زهران، شكلوا طوقا حولنا لنجد أنفسنا محاصرين من كل جانب والسهام والرماح تنهال كالمطر لم أسمع سوى اللعنات ولم أر سوى الدماء، لم يبد الواقع أشد وطأة من الكابوس فأغمضت عينى وانتظرت الرمح ينهى الأمور وتمنيت أن يأتى مسرعا أيقظت عينى الصرخات لأبصر ما ظننته نهاية الوجود

فى ثوان معدودة لم يتبق سواى وأعضاء الآخرين المبتورة فى كل جانب من الرمال حولى، لم يقتلونى بل تركوا لى طعم الرعب قليلا

نزلوا من على جيادهم وبدأوا فى لملمة الغنائم بينما ظهر هو من وسطهم. عرفته على الفور رغم مرور أعوام طويلة. كان صبيا صغيرا فى المرة الأخيرة التى نظرته فيها، لكن كل شىء قد تبدل سوى عينيه. أحالتنى لذلك اليوم وتلك النظرة التى رمقنى بها ودفعتنى للقيام بخصيه اقترب منى محدقا فى بثبات وسيفه فى غمده، طال صمتنا حتى نطق أخيرا

- سأترك للصحراء مهمة قتلك أو رحمتك

عاد مرة أخرى إلى جواده وبعد دقائق انصرفوا جميعا، شعرت بالشمس الحارقة تحرق جسدى بعد أن أزالوا كل المظلات الصغيرة التى كنا نحمى بها رؤوسنا، تشربت الرمال الدماء فى لحظات وكأن

شيئا لم يكن سوى بقايا آدمية هنا وهناك، تساءلت كم من الوقت سيطول عذابى حتى تقتلنى الشمس الحارقة والعطش؟

***

أفاق من نومه غير مصدق

ظل لدقائق فى فراشه ينظر حوله فى تعجب ليرى مناظر الأشياء نهض بعدها وظل يجول الشقة لا يعرف عما يبحث، ثم توقف أمام المرآة للحظات قبل أن يتمالك أنفاسه، ارتدى ملابسه وذهب إلى الورشة مسرعا قبل أن يمر الوقت منه دون أن يدرى، عندما وصل وبدأت الورشة كانت عدة مفاجأت فى انتظاره

توجه إليه أحمد راتب وطلب منه قراءة بعض الأوراق تناولها منه وبدأ يقرأ كانت عبارة عن عدة مشاهد لا يجمعها سوى العنف بصور مختلفة، ظل يقرأها مرارا وتكرارا بينما البقية يؤدون تدريبات أخرى، وفى نهاية المهلة انضم لهم وشكل الجميع حلقة دائرية حوله حسب تعليمات أحمد راتب ليبدأ التدريب الأدائى

هو بدأ بالتكلم ولكنه لم يكن يدرى أن الآخرين قد تلقوا تدريبات حركية معينة ففوجئ قليلا عندما بدأوا الحركة من حوله، حاول تجنب التشتيت وبدأ فى أداء المشهد الأول

- توضأت بدمى وهبطت لأتم الأمور، لا أسمع ولا أرى ولا أشعر فقط سأتذوق الدماء أنا الظالم والمظلوم. أنا الواحد والمتعدد. أنا الإله الساذج والمجرم المحنك، أنا من ينهى ما تركه الآخرون، ويترك بصمة دمه تقتل وتبيد وتحيى وتميت، أنا الأضحية

الوحيدة التي لا تدرى ما هي فاعلة، أنا القاتل والمقتول، أنا النقاء المغموس في العهر الملطخ بالنور

نطق الكلمات وهم يشكلون حركات وحشية حوله. يذبحون ويتذوقون الدماء ويقفزون في جنون وسط أصوات مخيفة، بدأ يدور في مكانه ببطء تطور إلى سرعة كبيرة ثم توقف وسقط من الدوار وبدأ يكمل وهو على الأرض بقية الحوار

- لا تعرف المعنى قبل أن تختلط دماؤك بدمائهم، وحينها تدرك أنه لا معنى سوى القتل، وحين تقتل تدرك أنك قُتلت، وحينها فقط تموت

نهض من مكانه وركض إلى زاوية المسرح و من ثَم إلى الأخرى مبعدا بيديه قيودا وهمية تلتف حوله، والبقية يشكلون حواجز، بدأوا في ربطه وحاول الهروب قبل أن يسقط في فخ يراه في منتصف المسرح

لم أكن أدرى أني أقتله، ظننت أن موته يزيدني حياة، وأنه لن يلبث أن ينهض مرة أخرى. السكين يتوغل في صدره وأنا أمسك به بإحكام. اخترق السكين بطنه حتى دخلت يدى معه وخرجت من ظهره. وجدت السكين يخترقني كذلك انفتح ثقب صغير في بطني وبدأ الجميع في شرب دمائي. استسلمت تماما في راحة شديدة ولم تبق مني قطرة دم واحدة. قبل أن أغمض عيني لم أجد أحدا منهم، ولم أجده هو الآخر فقط وجدتني وحدى أموت وأحيا!

استمر الأمر حوالى ربع ساعة قبل أن ينتهى من المشهد الأخير، ساد صمت تام بعد آخر كلمة، لم ينطق هو ولا بقية الفريق بكلمة وكأنهم يبتلعون الصدمة. قطع الصمت فقط تصفيق أحمد راتب، وهو يقول:

- جيد للغاية.

كأنه اتفاق، لم ينطق أحد من الفريق، انصرفوا فى صمت، وصل منزله سريعا، وتناول بعض الطعام وأخذ ينظر إلى فراشه فى رعب، لا يود الذهاب له مجددا ألم مبرح يئن فى داخله، بدأت المشاهد تختلط فى ذهنه بين أحمد راتب والفريق والمشاهد. طفل يتم قطع حبله السرى لينفصل عن أمه وبين مشاهد جنازة أسرته، ما كل هذا؟

أصبحت كل الأدوات والأحداث والمشاهد هى طريق إلى التشتت وفقدان الذات، كيف يستطيع أن يكمل بهذا الشكل؟ ظل يسأل نفسه هذا السؤال غير خاف عنه مفاجأة اكتشفها اليوم وسط تمثيل تلك المشاهد، كأنه يخفى عنفا مفرطا عن الجميع ظهر اليوم، هل يحمل ماضيا مغايرا؟ هل يحمل مستقبلا مغايرا لتوقعاته؟ هل يحمل أى توقعات فى الأساس؟ ما مصدر كل هذا العنف؟ كأنه كان يفصح عما بداخله.

حياته الآن يستعرضها أمامه ولا يجد فيها قطرة دم ولا صدى لعنف، ولكن حقيقة ما شعر به اليوم كانت جلية، هل ينساق لأحاسيسه دون وجود حقيقة موضوعية؟

ازداد توتره فنزل مرة أخرى إلى الشارع. أخبر نفسه أنه سيظل يركض كثيرا حتى يشعر بالإرهاق فربما نام بعدها نوما سريعا دون أحلام. عندما بدأ في تنفيذ مخططه تكاثفت أحلامه مستيقظا أثناء الركض. ذلك الفاصل بين النوم والاستيقاظ ظنه يتلاشى، ظل الخصي أمام عينه وكأنه ينظر من داخلها ذلك المشهد الملكة تُنتهك أمام عينه وهو صامت يستلذ تدمير الجميع

حسنا لن أدع نفسي فريسة لأفكار مخيلة مريضة ربما تكون ناتجة عن بعض التدريبات المسرحية. ربما هو مجرد اشتياق للتخيل من فرط الواقعية

حدث نفسه بهذا وعاد مسرعا لشقته، غسل وجهه بالماء البارد ونظر بعض الوقت إلى الفراش، ثم تسلل إليه، ظل يفكر بعض الوقت في أسرته والحادث شعر بافتقاد شديد ووحدة مروعة، فتح التلفاز ليجد فيلما عن الحرب العالمية، ظل يحدق فيه بعض الوقت ثم ما لبس أن رقد رغما عنه ونام نوما عميقا

طبقة الوعى الثانية
مارس ١٩٤٦ - خاركوف (أوكرانيا)

استلقى اليوم ألكسى بريس على كرسيه فى نفس الموعد من كل يوم كما هو محملا بثقل كوابيسه الحية لا تفارقه أينما ذهب مرتعش اليد كلما حدق فى الفراغ

يستيقظ صباحا ليتولى مسئولية الحديقة والزهور ولا شيء آخر، لم يكن الأمر كذلك فى الماضى، كان ألكسى بريس موظفا كفئا فى مصلحة البريد، ومتزوجا من امرأة تغطى زمنه وعمره بالكامل كاترينا

تغير كل شيء منذ الحرب عندما عاد إليهم من الأسر بعد أعوام طويلة؛ لم يستطع أن يعود إلى عمله المعتاد وبدأ فى الاهتمام بالحديقة، تركه الجميع دون كلمة واحدة يعمل ما يستطيع عمله،

يأتى الصباح فيستيقظ فى هدوء، ويذهب لساعات عاملا بالحديقة لا يتفوه بشىء إلا فى أضيق الحدود، ينهى عمله ليتناول وحيدا وجبة خفيفة ويظل على كرسيه أمام المنزل فى انتظار عودة كاترينا

لا يأتيه أحد سوى صديقه الذى يمر عليه تقريبا مرة كل يومين ليلبى له بعض احتياجاته، مع الوقت أصبحت كلمات ألكسى شبه منعدمة، ومن فرط الصمت أصبحت حنجرته تؤلمه إذا تكلم عدة جمل متتالية، فلاذ بالصمت والانتظار

هذا اليوم بالذات نهض من مقعده وذهب إلى مكتبه وأخرج ذلك الخطاب الذى وصله منذ شهر كامل، قرأه عشرات المرات على نفس المقعد، وأتى به اليوم ينظر له مرة أخرى

إبريل ١٩٤٥ دامين - ألمانيا

عزيزى ألكسى.

لا أملك الآن سوى بعض اللحظات قبل النهاية، لم أجد سواك فى ذهنى وقلبى، لم يتوقف شريط الذكريات إلا عند نقطة واحدة، ودائما ما تكون أنت فيها

الوضوح المدهش الذى يصاحبنا تلك الأيام يرعب الكثيرين. بجوار الموت كل شىء يصبح واضحا وبسيطا، ترن بداخلك دقات قلبك معلنة لك عن الخواء التام، وعبث الأيام الماضية، فى البداية تظل تسأل نفسك لماذا لم أفعل ولماذا فعلت ولماذا إلخ، بعد عدة ثوان يأتيك ذلك الهدوء، سأبوح لك إنه هدوء الخوف.

تعودنا طوال العمر ألا يبدو شيء واضحا ، المشاكل تنفجر فى كل مكان منذ عدة شهور والآن أتت الأنباء باقتراب الروس من الدخول إلى ألمانيا أخيرا تعلَّم الروس الانتصار بعد أعوام من الفشل والحصار ، وها هم يأتون إلينا فى الطريق محملين بكل تلك الوحشية التى زرعناها فى أرضهم . الأساطير تحاك الآن عما حدث فى بعض البلاد التى دخلوها ، لكن لا شيء يهم جوار الموت ، قبل أشهر من الآن زادت معدلات الانتحار ؛ فاستقبال الموت أفضل من مشاهدته مرات .

قررت أن أكتب إليك هذا الخطاب ولا أعرف إن كنت سأنجح فى إرساله لك وسط كل هذه الفوضى أم لا؟ ،الروس فى اقتراب وشيك . أحدهم أخبرنى بطريقة ما لإرسال الخطاب ، ولن أطيل فى شرح تفاصيلها لك ، أفعل ما أفعله الآن بكل إرادة ، لأنى أردت أن أكلمك قليلا قبل موت محتمل

التقيت إحدى الفتيات فى الشارع رغم الفوضى ، أعرفها جيدا منذ أعوام أخبرتنى لاهثة أن أباها أطلق الرصاص على أمها وأختها وشنق نفسه ، ونجت هى بأعجوبة عندما قفزت من النافذة قبل إصابتها بالرصاص . تركتنى وأكملت ركضها بينما اقتربت أنا من النهر ، أرى بوضوح كل تلك الجثث المنتفخة بلونها الأزرق المحتقن ، بينما ينظر الكثيرون إلى المياه ولا يستطيعون اتخاذ القرار ، بدأ الأمر منذ يومين عندما بدأت أسر كاملة فى إلقاء نفسها فى النهر ، القصص عما سيفعله الروس بنا وعما فعلوه بالبلدان المجاورة كانت

أصعب من الموت ، أنا أملك الآن لحظات بسيطة بعدما عدت من الخارج وجلست أكتب الخطاب في انتظار ساعات قليلة ربما سيأتي الموت بعدها

أردت أن أخبرك أن اللحظة التي فارقتك فيها ورفضت العودة معك إلى خاركوف كانت اللحظة الأسوأ في حياتي ، طوال مدة بعثتك التي امتدت لشهور هنا في ألمانيا عرفتُ أنك حبي الحقيقي ، رفضت العودة معك ولو حتى لأشهر كما طلبت مني ؛ لتعيد ترتيب أمورك قبل اتخاذ قرار بالمكان الذي ستعيش فيه ، أرى الآن كل تلك القيود التي كبلتني وكأنها الموت ذاته ، كان في إمكاني أن أفعل ما أريد ولكني ارتضيت أن أظل هنا ، وسأدفع الثمن الآن وحيدة ينقصني المعنى بدونك

أحبك

فالترا دريسكي

صيف ١٩٤١ خاركوف - أوكرانيا

اليوم هو ذكرى زواجه السادسة.

مضى ألكسى بريس سعيدا فى طريقه عائدا من العمل، كان قد اتفق مع كاترينا على الاحتفال اليوم، أصر على العودة من ذلك الطريق بالذات حتى يعيد تذكر لقائهما الأول، ظل متوقفا فى تلك النقطة يخبر نفسه أنه ها هنا رآها أول مرة، كان يائسا من كلمات والده المعنفة له طوال الوقت. يسير حزينا حتى رأها صدفة فى الجانب المقابل، أحدهم اختطف حقيبتها مسرعا على دراجته ليقابله ألكسى من الاتجاه المقابل ويدفعه بقدمه دفعة بسيطة ليسقط تاركا الحقيبة ويهرب مسرعا، أخذ ألكسى الحقيبة والدراجة وأعاد الحقيبة لكاترينا التى شكرته كثيرا، وأخبرته أن هذا الشاب دائما ما يحاول مضايقتها وأنه يستحق تلك الدفعة، ابتسم ألكسى وتبادلا بعض

الكلمات التى سرعان ما جعتلهم يتفقون على اللقاء مرة أخرى.
وبعد أيام بسيطة أخبرها ألكسى بأنه يحبها

كم عام مر على ذلك؟ ربما سبعة أعوام، وها هو الآن يعود لها ليحتفل بذكرى ميلاده مع كاترينا وانفصاله عن والده فى الوقت نفسه.

- أنت لا تستطيع تحمل أى مسئولية
كف مرة واحدة عن تأنيبى
ليته كان نافعا، يبح صوتى بلا فائدة!
وكان الانفصال

ظهرت كاترينا فى ذلك الوقت بالذات لتملأ تلك المساحة القهرية فى قلبى.

وصل ألكسى المنزل أخيرا حاملا تلك الزهور، فتح الباب وظل ينادى على كاترينا دون إجابة حتى وجدها جالسة فى وجوم فى غرفتهما سألها عما بها فأشارت له أن يستمع إلى الراديو، بدأ فى الاستماع، ولكنه لم ير ما رأته هى!

*

بدأ الأمر بالكلاب والقطط لكنه لم يستمر هكذا، فقد قُتل أغلبها سريعا، توقفت الأعمال كلها بالتدريج وبدأ الجميع فى التحول إلى آلات باحثة عن الغذاء، لحظات ويدرك المرء أنه لم يكن يدرك شيئا عن نفسه ولا عن الآخرين.

كانت كاترينا تستمع للراديو منذ مدة بسيطة إلى أخبار عن

قدوم الألمان القريب، بدأت طبول الحرب وجيوش هتلر فى طريقها الآن إليهم ولن يستطع أحد الصمود أمامها، لم يتخيل هو فى تلك اللحظة أنهم سيصلون إلى تلك النقطة، ولكن الجيوش أتت وبدأت فى الاستيلاء على كل المحاصيل الزراعية وإرسالها إلى برلين؛ لتبدأ مجاعة مروعة.

أخبرها فى ذلك اليوم الذى اتفقا فيه على الزواج أنه سيحميها إلى الأبد، وها هو الآن لا يستطيع توفير حتى الغذاء لها، رقدا بالأمس جوعى مع انتهاء آخر مؤنة لهما؛ ليستيقظا صباحا دون أى غذاء، أحيانا كان ينظر إلى وجهها فيرى وجه أبيه يعنفه، تركها ليذهب باحثا عن أى شىء يقوتهم. أجواء كابوسية تحيط به لتخبره أنه سيفعل أى شىء ليحصل على الغذاء. بدأ فى السير والرؤية المروعة كل ما حوله، بعضهم قادر على قتل آخرين من أجل الحصول على قطة أو كلب ليأكله!

مضى فى طريقه فاقدا الإحساس تاركا قدمه تقوده إلى أى مكان، اقترب من ثكنة عسكرية ألمانية ليرى منظرا لن ينساه حتى بعد عودته من لينينجراد بعد عدة أعوام، سيظل متذكرا ذلك المشهد طوال عمره، طفل يزحف فى بطء وضعف شديدين تجاه الثكنة مادا يديه طالبا أى شىء ليأكله. دون الاحتياج للغة أو كلمة يفهم الجندى الألمانى ماذا يريد الطفل، ويدخل إلى داخل الثكنة لدقيقة ويعود مرة أخرى حاملا دلوا تاركا إياه للطفل. يكمل زحفه ليمسك بالدلو ويقلبه حتى يستطيع تناول ما بداخله من طعام ليجده مليئا بالبراز

أشاح بوجهه بعيدا عن ذلك المنظر ولم يستطع الالتفات مرة أخرى لئلا ينظر بعينه ذلك الطفل، ولكنه لم يستطع منع نفسه من سماع قهقهة الجندى الألمانى التى كانت تجلجل فى الفضاء، أخذت قشعريرة باردة تسرى فى جسده وقبل أن يفعل أى شيء سمع صوت رصاصة سريعة وصمت لثوان بعدها، التفت مرة أخرى ليجد الجندى يسقط صريعا، ويبدأ بعدها بلحظات تبادل إطلاق نيران كثيف إنها المقاومة!

وجد الجحيم حوله فى كل مكان، وركض كما لم يركض من قبل، علم وهو يركض أنه بجوار أفراد من المقاومة. التوقف الآن يعنى القبض عليه من الألمان الذين ردوا بعنف وسريعا بدأوا بمطاردة هؤلاء الأفراد، وجد نفسه يدخل ويخرج من أزقة كثيرة ويركض فى اتجاه الغابة ولا شيء بداخله سوى طاقة غريبة، توقف للحظات عندما دخل الغابة وشعر بدقات قلبه ستفجر جدار جسمه بعد قليل، ثوان قليلة وواصل الركض، قبل أن يجد شيئا أمام وجهه وتظلم عينه سريعا.

- ألكسندر أشعر كأننى أركض طوال العمر، وأريد أن أتوقف للحظة واحدة.

الكل كذلك أليس سعيك وراء تحسين أوضاعك المادية والنفسية؟

كلما أشعر أنى سأقبض على مبتغاى، أدرك أنى أبتعد عنه تماما

- ألكسى. ربما الوقت قد حان لتخرج من أجواء رواياتك المبتورة دائما لتدخل فى عالمنا الحقيقى.

- هل تشعر أنى رخو

- لا

- سوف أخبرك بأعجوبة ولغز العمر كله. لا أعلم كيف استطعت الاستمرار فى العيش بتلك الرخاوة!! لم أعش بمفردى لحظة واحدة وأرتجف رعبا من الوحدة!

***

مقدر لك أن تعيش عمرا جديدا، كنت تركض كالمجنون وكدنا نرديك بنيراننا لولا توقفنا فى اللحظة الأخيرة بسبب تعرف أحدنا عليك،

أفقت ناظرا إلى الوجوه من حولى لأجدها من بنى وطنى لم أسقط بين يدى الألمان كما توقعت ولكنى وصلت إلى معسكر مقاومة دون أن أدرى. أحدهم كان قد ضرب رأسى بعنف لأفقد وعيى بعض الوقت نظرت حولى مندهشا معسكر كامل مليء برجال المقاومة وكلهم من سكان خاركوف. أعرف بعضهم ووجوه الآخرين تبدو مألوفة لى.

نهضت مسرعا طالبا منهم الرحيل فور ظهور وجه كاترينا فى ذهنى مرة أخرى، أشار لى أحدهم بالتريث قليلا وأخبرنى أن اليوم لن أستطيع المغادرة؛ لأن عمليات عنيفة ستحدث اليوم وسيشتبك فيها الجميع وربما أفقد عمرى فى الطريق، ارتعت وأخبرته أنى

تركت زوجتى بمفردها فى المنزل، ثم سألته عما يقصد بالجميع، فأخبرنى أنه يقصد الألمان والروس، تعجبت وسألته ضد أى فريق يقاوم؟

- فى البداية تشكلت فرق المقاومة ضد الألمان منذ يوم وصولهم إلى أوكرانيا بعدها أمر ستالين بتشكيل فرق مقاومة روسية لتدعم المقاومة هنا ضد الألمان، كانت فرقة ستالين تتلقى أوامر بالإعدام الفورى لأى فرد يشكون فى تقاعسه أو معاونته للألمان، بالأمس فقط أُعدم أكثر من عشرين أوكرانيا بعضهم ينتمى لنا، عرفنا أننا سنحارب الجميع من روس وألمان منذ تلك اللحظة

صمت مندهشا شاعرا باضطراب لم أشعر به من قبل، ثم توسلت إليه أن يتركنى أمضى حيث أستطيع أن أجد كاترينا، حاول إثنائى عدة مرات ولكنه تركنى بعدما رأى إصرارى. قبل أن أنصرف أعطانى مسدسا وأخبرنى أن هذا فقط ما يستطيع أن يساعدنى به، تمنى لى حظًا طيبا وتركنى أنصرف بعد أن شدد على بنسيان كل ما يتعلق بهم وبأماكنهم وبأى شىء يخصهم.

ركضت. ركضت بحبى لكاترينا أنت تعلمين يا كاترينا، صعدت تلك التلال يحركنى شعور بالضياع، إن فقدتها فسأفقد نفسى، ظللت أركض مدة طويلة حتى وصلت إلى المدينة لأجدها تحترق كما أخبرونى. النيران وأصوات الرصاص تمزق الآذان وتحرق الرؤية. الجنود يواصلون اقتحام البيوت، يصمت السكان فزعين ويتركون بيوتهم للنهب، لا أحد يعرف هوية المقتحم؛ ففى النهاية

يتحول الجميع إلى مرتزقة، وكل من يمسك سلاح عليك بطاعته، تحول الأمر إلى رعب هائل أفقد الكثيرين أعصابهم وتكاثرت حوادث القتل لأتفه الأسباب.

استغرق الأمر منى عدة ساعات حتى وصلت إلى المنزل بعد العديد من الالتفاتات حوله، رأيت الباب مفتوحا، دق قلبى بعنف وركضت إلى الداخل بحثا عن كاترينا

***

يناير ١٩٤٢ - أكتوبر ١٩٤٢
ستالينجراد - الاتحاد السوفيتى

رقد جوارى ذلك الجندى لعدة ساعات، لم يفتح أحدنا فيها فمه، إلى أن نطق أخيرا

- سأخبرك بشىء أيها الرفيق.

- سوف أموت اليوم.

- ألا تصدق

- سأستلق قليلا قبل الموت.

- روسيتك ليست محلية.

- لست روسى الأصل، ومثلى مثل كثير من الأقليات قاموا بتهجيرنا من أراضينا تنفيذا لأوامر الرفيق ستالين، من أين أنت؟

"ألكسى من أوكرانيا

لقد خمنت ذلك، هل أنت هارب؟

- نعم، وأنت؟

- أنا ميت

- ماذا بك؟

- ألم تسمع صوت تلك الطلقة؟

لقد سمعت شيئا منذ ثانية واحدة.

كانت طلقة فى ظهرى. ألم أقل لك!

- ماذا تقول

***

أين أستطيع أن أجد كاترينا وسط مدينة تحولت إلى أنقاض؟ هل أستطيع التخلص من البحث عنها يوما؟!! هل أستطيع يا كاترينا؟! هل أستطيع؟!

أغلقت عينى الجندى الميت بجوارى ونهضت.، مضت أشهر على هروبى من الأسر إلى سجن أكبر بكثير، مدينة كاملة تحولت إلى سجن نستيقظ جميعا كل يوم مع أصوات الطائرات الألمانية تقذف شحنات هائلة من المتفجرات، نواصل يومنا حتى نموت أو نعود لانتظار الموت، سمعنا أن متوسط عمر الجندى الروسى فى

المعركة هنا فى ستالينجراد منذ بدأ القتال حوالى يوم واحد

سجينٌ أنا منذ أسرى من منزلى فى خاركوف، أبحث عن كاترينا التى لم أجدها عندما عدت للمنزل المرة الأخيرة. بعدها اقتحم الروس المنزل واتهمونى بالتعاون مع الألمان، حاولت التوضيح مرارا بلا فائدة. تم إرسالى بعدها كغيرى إلى الجيوش فى ستالينجراد قبل الحصار بمدة بسيطة.

وجدت نفسى هنا أبحث عن كاترينا كالإبرة وسط مدينة حطام! بالأمس قضيتُ ليلة فى منزل إحدى الأسر سمحت لى بالمبيت ليوم واحد. سألونى كيف هربت من الأسر، ظللت صامتا، وعندما دمعت عيناى لم يسألونى بعدها عن شىء، ولكن ما الفائدة؟ لقد تذكرت كل تفصيلة. كل واحدة منها قادرة على إصابة المرء بالجنون، أشتهى الآن فقدان الذاكرة، ولكنى أستيقظ كل يوم مع وعى أكثر كثافة وذاكرة أكثر صفاء لأقضى جحيم يومى لا مهرب منه ولا حتى بالنوم.

ماذا بقى منى الآن يا كاترينا؟ تذكر يا ألكسى يوم أن أرسلوك وسط الألغام. تذكر جيدا لئلا تنسى أنك والموت صديقان. تذكر وجه كاترينا الوحيد الذى يصاحبك فى طريق الموت منفجرا من لغم مجهول.

كان ما طلبوه بسيطا أن أسير أنا وزملائى الأسرى إلى الأمام حتى بداية خط الهجوم الألمانى، وعندما تتم إصابتنا يستطيع الروس معرفة أماكن تمركز الألمان وتبين ما إن كان هناك ألغام مزروعة فى

الأرض أم لا؟، بدأنا السير فى هدوء منتظرين الموت من طلقة ألمانية أو روسية أو ربما لغم مزروع فى الأرض، وقتها لم أعد قادرا على التكلم. فقط صورة لكاترينا تغطى بصرى، ولا مبالاة جنونية تقودنى إلى الإسراع فى خطوى لإنهاء ذلك العذاب سريعا، اشتهيت الموت بقوة وغضب وعنف لكنى لم أتبين ذلك وقتها فلم أكن قادرا على الشعور، وجدت نفسى طائرا بعنف فى الهواء وصفير يكاد يسد أذنى، سقطت بثقلى كله على ذراعى الأيمن وأنا أسمع صوت تكسر عظامه، فتحت عينى ببطء ووجدت بقايا أحشاء آدمية وعظام منصهرة فى كل مكان، قبل أن أفيق من صدمتى رأيت الطلقات النارية المنبعثة من البنايات الأربعة نحو الروس فى الخلف لم أسمع صوتها حتى بل رأيت ومضاتها وسط الأتربة، فقد كان صفير اللغم يغطى على حواسى كلها، منذ عدة دقائق كنت أشعر أنى مستسلم تماما للموت

تغير الوضع

"كاترينا"

أود لو تفارقينى حتى أموت فى هدوء لا أستطيع الاستمرار

صوتها ينادينى ويخترق أذنى ويتسلل إلى كيانى، أركض بذراعى المكسور، وتقبلين عنقى برقة، إصابات أشعر بها ولا أتبينها، وتدلكين أطرافى المنتصبة بأناملك الصغيرة، وسط ميدان محاصر بالنيران والأشلاء، تجذبنى يدك لاسترخى بين دفتى صدرك،

أستمر فى ركضى، وتحتوينى بجسدك الحانى، أصل إلى مبتغاى.

أصل إلى إحدى البنايات لم أجد بها سوى جندى ألمانى لم يلحظ دخولى، بكل العنف والألم انقضضت عليه وضربته بكل طريقة ممكنة، فقد وعيه صعدتُ مسرعا حتى سطح البناية وبدأت فى القفز من بناية لأخرى.

فى كل قفزة كنت أخبر نفسى بالآتى

إن نجحت فربما أرى كاترينا، إن سقطت، فعلى الأقل لن أرى ما أخشى رؤيته.

متى ستأتى تلك الطلقة لتنهى كل شىء، ظللت أنتظرها وأهرب منها فى آن واحد رغما عنى، هبطت إلى الأرض مرة أخرى وسرت وحيدا وسط الحطام بذراع مكسور، لم أعد أحتمل، إنه اليوم الثالث على التوالى بلا ماء أو طعام، قضيت هذا اليوم داخل حطام منزل وسط الجحيم، وسط الشارع احتدم الصراع بين الألمان والروس وأنا فى انتظار من سيقتلنى فيهم، انفجار القنابل بالقرب منى أصبح عاديا

فى الصباح بدأت النيران تزداد كثافة وأنا ما زلت حيا وسط ذلك الجحيم حتى سمعت أصوات انفجارات لم أر بعدها شيئا لثوان، فى البداية اعتقدت أنى مت، ثم بعد ذلك حسبت أنى فقدت السمع، ولكنه عاد بعد دقائق تدريجيا، نهضت من ذلك الركام الذى غطانى بالكامل وسط هدوء غريب. يبدو أن كل طرف قد أنهى على الآخر ولم يتبق سواى، نهضت وسرت فى وسط الشارع

العالم على جدى (الهيئة العامة لقصور الثقافة)

فى تهور أحمق، وربما حكمة عجيبة لأنهى حياتى، دخلت الحطام المقابل لى لأرى ضابطا ألمانيا مستندا على بعد الصخور ينظر إلى فى فزع لا يوازيه شيء سوى فزعى أنا الآخر، أخرج صورة حدق بها لثوان ثم أخرج مسدسه فقدت نفسى وانتظرت الموت، ولكنه أنهى حياته هو، أخذت الصورة من بين يديه فإذا هى أسرته، رميت بها وأكملت سيرى ورغبة عارمة بداخلى تراودنى بأن أقتل كاترينا!

***

لم أسامح نفسى أبدا على ذلك الشعور، رأيت نفسى بينما أضرب كاترينا بالنارفى مخيلة مريضة، شيخ بجوارى يخبرنى ألا أحد قادر الآن على التحكم فى خيالاته وسط ذلك الجحيم، ولكنى لم أسامح نفسى أبدا ها أنا أستمر وسط ذلك الجحيم لأرى جحيما آخر يفوقه ما بداخلى.

أنتظر الموت مرة أخرى ولكن تلك المرة تحت الأرض فى منزل أحدهم. كنت مطاردا من رجال التحريات ولم أجد مكانا أختبئ فيه ووجدت من يجذبنى فجأة داخل منزله.

فى ذلك الوقت كان رجال ستالين يقتلون من الروس أكثر مما يقتلون من الألمان، هو أيضا كان يملك أخا مات وسط ذلك الجحيم فانتشلنى وأدخلنى منزله لأبقى عنده عدة أيام، أخبرنى فى اليوم الأول أنه فى معركة واحدة قتلت قوات ستالين أكثر من ثمانية آلاف جندى روسى، كانوا يرمون بهم إلى أرض المعركة لا يحمل أى منهم سلاحا سوى الصف الأول، وكان على بقية الصفوف أن تلتقط

أسلحة الموتى من الفريقين، ووسط جموع الهاربين تلتقط قذائف قوات ستالين أعدادا لا حصر لها، وكان أخوه أحد قتلى تلك المعارك، أخبرته أنه يخاطر بحياة أسرته إن تركنى أقضى عنده بعض الوقت؛ فكان جوابه

- ألكسى. حياتنا كلها معرضة للخطر يوميا، ولن تزيد أنت من خطورتها شيئا

قضيت عنده شهرا كاملا، وفى اليوم قبل الأخير اقتحم رجال تحريات منزله، كان قد خبأنى فى مخبأ تحت أرض منزله، كتمت أنفاسى طوال مدة التفتيش انتهوا من التفتيش، وانتهيت أنا مرة أخرى. وجدونى فاقدا للوعى فأخرجنى هو وزوجته وأفقت بينهم جميعا، نظرت إلى أطفاله الثلاثة متمزقا، أود لو أبقى عنده إلى الأبد، ولكنى أرى بوضوح مؤلم خطورة ذلك على أطفاله، لم أستطع أن أغامر بحياتهم مرة أخرى، ودعته بعد حوار قصير لم يستطع هو الآخر أن يلح على بالبقاء، كنت أنتظر إلحاحه لأقبل البقاء يوما آخر، وكان ينتظر منى أن أطلب الرحيل، طبعت زوجته قبلة على خدى لأخرج مرة أخرى إلى المجهول.

***

ألكسى، قلت لك إنك لم ولن تستطيع تحمل أية مسئولية، أخبرنى عن نجاح واحد قد أحرزته، مازلت كالطفل متواكلا على الجميع، كنت أتمنى أن يقتصر الأمر على فشلك، لكنك لم ترض بذلك، أنظر إلى وجه أمك.. أنظر إليه، مازال قلبها ينفطر حزنا من أجل خيانتك.

- أنا لم أقصد أن أن.

- أنت لم تقصد شيئا أنت لم تفعل شيئا أنت لم تكن تدرك. كف عن إجاباتك الساذجة تركت أخاك الصغير وحده وذهبت لتشترى حلوى. لقد كلفتك الحلوى دم أخيك أيها الحقير اذهب عنى. لا أطيق النظر إلى وجهك لقد حطمت قلوبنا اذهب اذهب

لا انتظر سوف أوسعك ضربا قبل ذهابك، قليل من الصفعات قد يذكّرك دائما بما فعلته، هذه الصفعة ثمنا لذهابك، هذه الركلة حتى ترى صورة أخيك جيدا وهو يذهب بمفرده إلى باطن المياه

أنظر هل تراه الآن؟ أعطنى رأسك اللعينة، هل تراه الآن؟ إنه يدخل بكل براءته إلى المياه لأن أحدا لم يخبره أنها خطيرة. لأن أحدا لم يخبره أنه مازال طفلا صغيرا لأن أحدا لم يخبره أن شقيقه الأكبر لا يهتم به، ولن يحميه. ها هو يغرق الآن مصارعا المياه بذراعيه الصغيرتين بلا جدوى. أود لو أكتم أنفاسك الآن لترى كتمان أنفاسه تحت المياه، متى ستدرك أنك لم تولد بعد وأنك مازلت طفلا تحتاج للتوجيه رغم تخطيك ذلك السن؟

سوف تطاردك لعنتى إلى الأبد.

يناير ١٩٤٣ ستالينجراد - الاتحاد السوفيتى

وسط الثلوج تتجمد المفاجآت ولا يصبح لشيء طعم أو لون سوى الدماء الدماء وحدها تستطيع أن تغير اللون الأبيض

انقلبت الأمور فجأة بصورة دراماتيكية وبدأ الجميع فى احتساء الخمر بهيستيرية لتبدأ حملات انتقام منظمة، فجأة تحول الألمان إلى فئران صيد يطاردها الروس فى كل مكان، امتد القتال من شارع لشارع حتى وصل الروس إلى المقر الألمانى وتم أسر المشير والذى بغرابة شديدة - وجد حيا، كان هتلر قد رقاه إلى درجة مشير منذ فترة بسيطة منتظرا منه إنهاء حياته، ولكنه لم ينتحر وسلم نفسه

بدأ الأمر كله فى ٢٣ نوفمبر، نجحت قوات الجيش الأحمر فى تطويق الجيش الألمانى بستالينجراد قرب مدينة تدعى "كالاتش بدأت فورا الأعمال الانتقامية، تشجع الكثيرون وبدأوا فى ملاحقة

القوات الألمانية فى كل مكان بالمدينة، بدأت حملات الذبح والانتقام، يتقهقرون الآن من شارع لشارع، ومن حى لحى، علمت أن المستحيل قد حدث، أخبرونا فيما بعد أن الجيش الأحمر قد أعد لهذه العملية من فترة وأسماها عملية "أورانوس ، وبدأ الهجوم من الشمال من ناحية الرومانيين حلفاء الألمان الأضعف، وبدأ هجوم آخر من الجنوب، حتى وصلت القوات إلى مدينة كالاتش ووجد الألمان أنفسهم محاصرين فى ستالينجراد، انتاب الألمان موجة يأس مذهلة وبدأوا فى الاستسلام سريعا، انتاب الجميع فرحة عارمة، ووصل الأمر بالكثيرين إلى حالة من الهستيريا، لم يكن أحد يصدق أن الأمر يبدأ الآن فى الانتهاء.

أفيق كل يوم وسط طوابير لا حصر لها من الجنود الألمان بينما يرقص الجميع طوال الليل على الأكورديونات الروسية ويحتسون الخمر؛ ليستيقظوا اليوم الذى يليه ويقضونه فى القتل والدماء، تحولت الفريسة إلى صياد ماهر لا يستطيع أحد إيقاف وحشيته، تجمدت ولم أعد أشعر بشىء، أواصل تنقلى من بيت لبيت ومن شاع لشارع كل يوم بلا جدوى وسط هذه الفوضى.

لم أعد إنسانا لم أعد أدرى فرحا أو حزنا فقط الخوف والهروب المتواصل والضياع رفقائى، بدأ سعالى فى تحطيم صدرى. لمدة غير معلومة تظهر أشباح أبى وأمى وكاترينا وتختفى قبل أن أدرى. لن أستطيع العودة الآن إلى خاركوف، لن أستطيع العودة قبل مضى وقت طويل، مازالت الجبهة فى أوج اشتعالها، لابد أن المدينة متمزقة بين الألمان والروس.

تأتينا الأخبار كل يوم عن هجرة الجيش الألماني ومسيراته اليومية إلى الغرب، وتهجير مجموعات هائلة من الأقليات من مكانها بالغرب إلى سيبيريا بالشرق

أرقد الآن بجانب الراديو فى أحد البيوت موشكا على فقدان وعيى أستمع إلى الكلمات، أكره اللغة، وأبدأ فى حذف الكلمات من القاموس. العقل - الحب - الإنسانية - التقدم! بعض نوبات النسيان بدأت. الكلمات الأماكن. الوجوه!

تنتهى دائما الصور بذهنى عند اللون الأبيض والأحمر، ووجه أبى يغطى كل الرقعة، وفى الخلف النيران مشتعلة كما كانت وكما ستكون!

***

فالترا دريسكى - إبريل ١٩٤٥
إبريل ١٩٤٦ دامين (ألمانيا) - خاركوف (أوكرانيا)

تمر الأيام، وأستيقظ أغلب الأيام على نفس الكابوس، كنت أرى تلك الطعنة دائما تخترقنى.

لم تفارقنى أبدا حتى وأنا فى وسط حقل الألغام، ذهبنا اليوم إلى إحدى بقاع بولندا، البلدان الآن كلها تتشابه، كل شىء طاله التدمير حتى البشر، تستطيع بوضوح أن ترى مأساة فى كل منزل

دخل السائق دون أن يدرى حقلاً للألغام وتوقف فزعا بعد أن أدرك ما فعل، كنا فى الوسط تماما، بدأ البعض فى النحيب والبعض الآخر ركع للصلاة بينما واصل آخرون السباب فى كل الناس وفى القدر وكل شىء، وحدى أنا قفزت من السيارة وركضت بجنون باحثة عن خلاص محتمل، انتهى الحقل ووجدتنى خارجه دون أن

أموت، صمت الجميع وحدقوا إلى من أماكنهم برعب شديد، رأيت فى أعينهم تلك اللحظة، ركض أمى وأبى مسرعين عند مدخل البيت فى ذلك اليوم محاولين تشتيت انتباه الجنود الروس عنى، كنت فى الطابق العلوى أرقب كل شيء بطرف عينى من النافذة، حاصروا أبى وأمى فى منتصف الفناء ونظرت هى إلى نظرة أخيرة كنظرتهم الآن، أصابتها الرصاصة، فتعذب أبى مئات المرات، أعتقد أنه كان قد مات بالفعل قبل أن تصيبه هو الآخر رصاصة رحمة، قبعت أنا فى مخبأى حتى انصرفوا دون أن يرونى.

- ألكسى. نظرتك تشبه نظرة أبى فى تلك اللحظة، خالية من الحياة!

نجوت من الموت وانضممت بعدها للصليب الأحمر، تمكنت من رؤية الدمار بشكل لا يستطيع مرء تخيله، كيف سنستمر يوما واحدا بعد كل ما حدث؟ يبدو أن عذابنا ومعاناتنا الحقيقية ستبدأ الآن عندما نعى ألا شيء يستطيع إيقاف الزمن، وأننا سنحيا كأن شيئا لم يحدث، فلنتقبل العبث فى ثبات

خطت أقدامى خاركوف بأمل أخير، اخترت الذهاب إليها مع إحدى فرق الصليب الأحمر علمنا أن مائة ألف قد ماتوا فى خاركوف دون رصاص، المجاعة التى خلفها الألمان باستيلائهم على المحاصيل أنهب حياتهم، بحثت عنك دون كلل لأيام متواصلة إلى أن خطت أقدامى مكان عملك، دخلت دون أن ألحظ وجودك بالقرب منى فى الحديقة، قابلت صديقك ألكسندر وسألته عنك فأخذ بيدى

وأشار إليك، كنت أود أن أخبره أن هذا الرجل ليس أنت بكل تأكيد، حكى لى عن كل ما مضى، حكى لى عما حدث فى وقت المجاعة الرهيبة، وعن إرسال ستالين قوات عسكرية سرية لمساندة حركة المقاومة الأوكرانية ضد الألمان، حكى لى عن حملات الإعدام التى بدأتها تلك الفرق الروسية ضد كل من يشكون فى تعاونه مع الألمان بأى طريقة، حكى لى عن ذلك الجحيم الذى نشأ فى ذلك الوضع الجديد الذى أصبح فيه الكل يحارب ضد الكل، حكى لى أخيرا عن كاترينا

- ذات يوم اقترب بعض الجنود الألمان من بيت ألكسى وكاترينا، كنت قد انتقلت إلى العيش معهم فى ذلك الوقت بعد أن احترق بيتى بالكامل، كانت بطوننا تؤلمنا أشد الألم، فلم نكن قد ذقنا شيئا منذ يومين، بدأت كاترينا فى الصمت التام وكأنها فقدت القدرة على تحمل أى شيء، وكان "ألكسى على وشك الجنون، يخبرنى فى كل ثانية أنه يشعر بالعجز، اقترب الجنود، وكانوا سكارى، اقتحموا المكان وبحثوا فى كل مكان عن غذاء ولم يجدوا بالطبع شيئا، ما إن خرج أولهم من الباب حتى أصابته طلقة فى رأسه مباشرة، ولم تمر دقيقة واحدة حتى كان الألمان ممدين على الأرض فى كل أنحاء البيت، دخل المكان بسرعة أربعة مقاتلين روس، اقترب زعيمهم منا ببطء وهو يخبرنا أننا نتعاون مع الألمان، ما إن بدأ ألكسى فى الكلام راغبا فى التوضيح حتى حطم أحدهم فكه بدبشك سلاحه، بدأوا فى توثيقى أنا وألكسى وأمام أعيننا اقتربرا

كلهم من كاترينا مشكلين حلقة ضيقة حولها، لم تعد تنظر هى إليهم. فقد كانت فى إغماءات متقطعة من فرط الإعياء، نظرت أنا إلى وجه ألكسى عندما بدأوا فى تعريتها من ملابسها، كنت أرى كل ما يفعلونه عبر وجهه، حاول بكل ما يملك من قوة التحرك، ولكنه كان مربوطا فى إحدى الزوايا بعنف. صرخ بكل ما يملك من قوة، ولكن الثوانى لم تمهله شيئا، رأى كاترينا تخطف فجأة سكينا من حزام أحد الجنود وتطعن نفسها فى منتصف بطنها تماما، توقف عن الصراخ، رأى كل شىء وهو فى تمام الوعى، لم يقتنع أحد الجنود بما فعلته كاترينا فولجها وهى ميتة، كنت قد استطعت تمزيق الحبل من جنون الشد والطاقة المفزعة التى تملكتنى، فانهالوا على ضربا بكعوب البنادق، ولم أر شيئا

عندما أفقت كنت مضرجا فى دمائى على أرض البيت، كان الليل قد حل ولم أكن أعلم كم من الوقت مر على الحادث. كنت أتذكر ما حدث بصعوبة. لم أجد أحدا سواى، نهضت فى ألم بثلاثة ضلوع مكسورة، تحركت ببطء شديد متتبعا آثار قطرات الدماء على أرضية البيت، عندما وصلت إلى نهايتها كنت قد وصلت إلى نهايتى، تطلب الأمر وقتا طويلا حتى أفيق تلك المرة، وبعدما تمت الإفاقة لم أكن أعلم شيئا سوى روايات مبتورة عن ألكسى، الشىء الوحيد الذى كنت متأكدا منه هو جثة كاترينا التى وجدتها فى نهاية آثار الدماء، كان الجيران قد شاهدوا بعضا مما حدث، ولم يجرؤ أحدهم على الاقتراب من المنزل إلا بعد مرور ساعات طويلة.

وجدونى فاقدا للوعى ممددا بجوار كاترينا، فى البداية ظنوا أن كلينا فارق الحياة، ولكنهم اكتشفوا أنى مازلت حيا، أخذونى للعلاج، وقاموا بدفن كاترينا بعد كل محاولاتى للبحث عن ألكسى لم يخبرنى أحد شيئا سوى أحد القاطنين بالجوار الذى أكد لى أن الجنود الروس قد اصطحبوه معهم. ظلت الأيام تمر دون أن أعلم شيئا عنه، فقط تبقى لى أمل مبتور لا يدعمه سوى شهادة وحيدة، مع مرور الأيام بدأت فى التخلى عن أملى، وقررت أن أتوقف عن البحث، فلم أعد أحتمل مزيدا من الصدمات. لبعض الوقت أشعر بأن ألكسى لا يدرك بعد أن كاترينا قد ماتت

طال صمته تلك المرة فسألته عما حدث بعدها

انتهت الحرب ولم يعد أحد يصدق أن الحياة ستعود مرة أخرى للاستمرار بشكل طبيعى، المذهل أنها عادت، وكل الأمور بدأت فى السير مرة أخرى، وكأن شيئا لم يحدث، لا أحد يتحدث عن الحرب الآن، الكل يحاول تصديق أن شيئا لم يحدث، عدت أنا الآخر إلى عملى محاولا النسيان، حتى أتى ذلك اليوم، من نفس الركن الذى نظرت فيه ألكسى ولم تتعرفيه، رأيته، كان يقترب بملابس مهلهلة من نفس الزهور، حدقت طويلا فى وجهه غير مصدق، بدأ قلبى فى الدق مرة أخرى، كنت طوال الفترة الماضية أعمل على صمته وإسكاته، لم أعد أحتمل مزيدا من الإحساس أو الانفعال، كنت أتحول إلى آلة ميكانيكية صماء، اقتربت منه حتى وقفت أمامه تماما، ظللت أحدق فيه، شعرت أنى رأيت كل ما حدث له طوال

الفترة الماضية فى عينيه ، لم يفتح فمه بكلمة ، بدى شاردا شرودا غريبا ، عيناه مطفئتان تماما ، لم يبد أنه عرفنى .

فى نهاية اليوم كنت قد تأكدت أنه مريض للغاية ، ظل شاردا طوال الوقت ، وعندما عاد إلى البيت كان يتحاور مع كاترينا أوقاتا طويلة كأنها واقفة أمامه ، فى أحيان أخرى كان يتشجار معها ذهبنا به - نحن زملاءه فى العمل - إلى إحدى المستشفيات ، قام الطبيب بفحوصات لا حصر لها ، ثم أخبرنا فى النهاية أنه لا يعلم ما به بالضبط ، فالرأس يبدو سليما ، إلا أنه مصاب بفقدان ذاكرة جزئى ، واكتئاب حاد ، مع بعض الهلاوس السمعية والبصرية .

عدنا به إلى بيته ، وكنت قد قررت بلا تفكير أن أقيم معه فى البيت لأهتم به ، فى تلك الليلة بالذات سمعته يردف اسمى بصوت خفيض ، ولم ينطقه مرة أخرى أبدا . علمت من وقتها أنه يعى وجودى ، ولكن يبدو كأنه رفض الاستمرار تماما ، رفض الحياة ، ولم تعد لديه حتى القدرة على الإنهاء ، لم يعد قادرا على أى شىء ، ولا حتى الشعور ، كان قد تحول إلى مسخ آدمى ، مع مرور الأيام بدأ فى الذهاب إلى العمل وحده ، يقضى الوقت فى رى تلك الزهور ، لا يكلمه أحد ، ولا يتكلم هو مع أحد ، كان يتركنى أساعده فى صمت تام .

كان ألكسندر على علم بعلاقتنا القصيرة فى الماضى ، فوافق فورا على ما طلبته منه ، منذ تلك اللحظة انتقلت للعيش مع ألكسى بريس ، لم يقل لى شيئا طوال شهر كامل ، نستيقظ كل يوم فى

الصباح، أعد له الفطور ثم يذهب إلى عمله ليعود منه وقت الظهيرة، أكون فى انتظاره فى هدوء، يتناول فنجان الشاى ويجلس على كرسيه المعتاد فى مدخل البيت فى صمت تام، يظل الوقت يمر حتى يبدأ الظلام، وقتها يصعد إلى حجرته ولا أراه إلا فى صباح اليوم التالى.

أول كل شهر يصلنا مبلغ من المال من مكان عمله يكفى احتياجاتنا البسيطة، لم أحاول تغيير نظامه بأى شكل بل على العكس، احترمت صمته طوال الوقت فقط كنت أمعن النظر فى عينيه كثيرا، رأيت كل ماضيه فى ذلك الصمت، كنت أنشغل فى أعمال منزلية فى الصباح، أذهب مرة كل ثلاثة أيام إلى أحد النوادى أقضى فيه المساء بعد أن يصعد إلى غرفته، ظللت أنتظر وأنتظر بينما تتكشف الذكريات وتنتج وعيا صافيا يفزع صاحبه من البصيرة.

فى ذلك اليوم الأخير كنت جالسة على بعد أمتار من كرسيه فى مدخل المنزل، خيم الظلام ولم ينهض إلى غرفته كعادته. لاحظت التغيير الذى كان بمثابة زلزال وسط روتينه اليومى الممل، نظرت إليه كثيرا لأرى وجهه جامدا، مرت ساعات هى الأطول فى عمرى قبل أن ينهض فى منتصف الليل ويتجه ناحيتى فى بطء، دق قلبى بعنف ونهضت من مكانى أرى ماذا سيفعل، وقف أمامى مباشرة ونظر فى عينى لثوان ثم نطق:

- فالترا . لقد ماتت كاترينا

دمعت عيناه وأحنى رأسه فضممتها واحتضنتها كثيرا وأنا أبكى، ونظرت بعيدا

***

ذهبت اليوم مبكرا عن الجميع، وجدت خشبة المسرح بمفردها، لم أستطع النوم طوال الليلة الماضية، كنت أنظر إلى يدى وأشعر أنه عما قليل سوف أرى دماء عليها، لم أعد بقادر على مواصلة العيش مغيبا، لقد تجاوز الأمر كل ظنونى، ظللت جالسا على الخشبة لمدة، ثم نهضت وبدأت فى التحرك، أغمضت عينى وواصلت، شعرت بوحدتى. شعرت بالقتل والموت، وراودتنى بقوة تلك الصورة التى رأيتها من قبل ،طفل يتم قطع حبله السرى بقسوة، شعرت أنى جنين لم يدك انفصالا

لا أعلم كم مر من وقت ولكنى عندما فتحت عينى مرة أخرى وجدت الجميع فى مقاعد الجمهور ينظرون إلى فى صمت، وفى مقدمتهم أحمد راتب، كل ما تعلق بذهنى تلك المشاعر الأخيرة عندما أدرك محب موت حبيبته بالفعل، أعلم أنى كنت ذلك الرجل فى الحلم، ولكن ذلك الشعور يحيرنى ويربكنى إلى المنتهى. كنت أحبها وفى نفس الوقت شعرت أنى تمالكت نفسى مرة أخرى عندما صدقت أنها ماتت، ولم يخف عنى أنى للحظات كنت أكرهها

سرت صوب أحمد راتب، وقبل أن أنزل من على المسرح تعثرت بقوة نسيت أنى فى مستو مغاير وأن على النزول درجات، سرت كأنى على أرض مستوية؛ فتدحرجت أرضا، تأوهت بقوة من الوجع

الذى صاحب قدمى المتعثرة، والتف الجميع حولى، حاولوا إنهاضى وحرك أحمد راتب قدمى عدة حركات بطيئة وطمأننى وطمأن الجميع أنى بخير فقط هو وجع السقطة.

- لن أستطيع المواصلة.

همست فى أذنه بالكلمات دون أن يسمع أحد، نظر إلى مدة ولم ينبس ببنت شفة.

جلست على مقعدى ولم أتمكن من مشاركتهم التدريبات، كنت شارد الذهن طوال الوقت، وعندما انتهى الوقت انصرف الجميع دون أحمد راتب، اقترب منى وجلس أمامى بعد أن صار المكان خاليا، ليسألنى

- ماذا يحدث؟

نظرت له بدهشة، وقلت

- أخبرنى أنت ماذا يحدث؟

لم يجبنى بشىء فى البداية وشرد بعيدا بنظره.

- فى البداية اعتقدت أنى الوحيد أعيش حالة من الاندماج والتوحد مع شخصيات مسرحية عديدة نقوم بالتدرب عليها، ولكن الأمر تجاوز ذلك، أشعر أنى لم أعد أدرى من أنا، لقد اختلطت على الأزمان والشخصيات، والمرعب أنى أشعر أنى قادر على فعل ما أراه فى أحلامى سواء فى النوم أم فى اليقظة.. أشعر أنى قتلت فعلا أشعر أنى ذلك المجرم الذى رأيته فى أحلامى، أشعر أنى خصى. أشعر أنى مبتور

- خصى؟

- نعم. لقد رأيتنى عبدا فى شبه الجزيرة العربية تعرض للخصى وتم بيعه لصالح أحد الملوك وترعرع هناك فى قصر الملك، ولم تمض سنون طويلة حتى كان قد قام بتدمير المملكة كلها، وفى وقت آخر رأيت نفسى أهرب من الجحيم فى حرب لا أعرف عنها شيئا سوى البحث عن امرأة أدرك أنها ذهبت إلى الأبد

صمت أحمد مدة وحدق فى باهتمام شديد ثم أكمل

- لقد تدربنا فعلا على أداء شخصيات العنف، ولكننا لم نمر بكل تلك التفاصيل

- أحمد أخبرنى بما يحدث.

عدل من وضعه قليلا، ونظر إلى وأخبرنى قصة غريبة، أخبرنى عن مركب إنجليزى يدعى ميجنونيب واجه عاصفة مرعبة فى عام ١٨٨٤ فتحطم على بعد ١٣٠٠ ميل عن القرن الأفريقى، ونجا منه أربعة فى قارب نجاة صغير دادلى الكابتن - ستيفنز مساعده - بروكس البحار بالإضافة لصبى يتيم يبلغ من العمر ١٧ عاما يدعى باركر كان يعمل مساعدا لبروكس البحار، لم يكن معهم شىء سوى علبتين من اللفت المعلب، بعد ثلاثة أيام فتحوا إحداها ثم اصطادوا إحدى السلاحف البحرية وتغذوا عليها هى والعلبة المتبقية لعدة أيام، لم يتحمل باركر العطش فشرب من البحر فأصابه مرض شديد وأوشك على الموت، استمروا ثمانية أيام دون طعام أو ماء فاقترح دادلى أن يتم اختيار أحدهم ليأكله البقية وبهذا الشكل

يستطيع ثلاثة أن ينجوا، واقترح فى البداية عمل قرعة لاختيار الضحية، رفض بروكس هذه الفكرة وانسحب منها، ولكن دادلى أصر وفكر قائلا أن الصبى باركر سيموت عاجلا أم آجلا لذلك يجب اختياره، وبالفعل قام بذبحه، تغذى الثلاثة على لحم باركر لثلاثة أيام متواصلة حتى استطاعت سفينة ألمانية إنقاذهم وعادوا مرة أخرى إلى إنجلترا لتقوم الملكة برفع قضية ضدهم، وفى القضية دافعوا عن أنفسهم تحت شعار مبدأ الضرورة وأنه كان لابد لذلك أن يحدث حتى يستطيعوا النجاة

حدقت فى وجهه بعد تلك الحكاية وتمتمت

- أحمد لم أعد أعلم من أنا

أخبرنى أن هذا شيئا جيدا للغاية، وانصرف من أمامى

عدت إلى المنزل وشعرت أنى مقبل على كارثة، ماذا قصد بكل كلماته تلك؟ نظرت إلى وجهى فى المرآة ولم أستشف شيئا، أغمضت عينى وشعرت أنى أفضل فى الظلام. عندما لا أرى شيئا أستطيع على الأقل الشعور أنا لست أنا

بدأت أستشعر ثقل الذهاب إلى البروفات، شعرت أنى فى كل يوم أذهب فيه أقترب من نهاية مرعبة، كم عام مر على دون أى ذكريات؟؟ لا أستطيع تذكر شىء بوضوح، حتى ذكرى أسرتى أشعر أنها صارت باهتة والآن أنا أمام تلك الكثافة وهذا ما يرهقنى جدا، اليوم لا يمر، ليس من فرط الملل، ولكن من كثافته. لا

أستطيع وصف ما لم أمر به من قبل جيدا، فكرت في البداية أنى أمر بحالة من الرتابة الشديدة جعلتنى فى جوع شديد للإثارة؛ مما صور لى كل تلك الأحلام والأحداث العنيفة، ولكن الأمر لم يتعلق فقط بالعنف، أشعر أنى بعد كل صحوة النوم أفقد شيئا ما كأنى أخلع عن كاهلى ارتباط ما كأنى أتحرر من شيء ما، أو ربما من شخص أو من فكرة!

وصلت فى موعدى وبدأ أحمد راتب فى تحضير بروفة جديدة، الوقت يمر دون أن يدرى أحد أين النص المسرحى، ما من نص حصلنا عليه حتى الآن، كل يوم نمر بتجارب مجنونة فى الأداء والمواقف المبتكرة وتبديل الأدوار والارتجال، وما من نص، كنا نسأل أحمد كل يوم، وكانت إجاباته مقتضبة لا توضح شيئا

اليوم تأخر حسين الغيطانى، حاول البعض الاتصال به بلا إجابة، انتظرنا قليلا، ثم قرر أحمد البدء، وقبل البدء بثوان وجدناه قد حضر، ثم قدم اعتذاره للجميع، وتكلم كلمات مقتضبة مع أحمد راتب على انفراد، وجلس أمامنا ولم يشارك، أخبرنا أحمد راتب أن حسين مصاب بصداع قوى فلن يشارك اليوم فى البروفة ولكنه سيتابعها من مكان الجمهور

همس أحدهم فى أذنى ضاحكا

قضى ليلته فى السكر أعرف هذا المنظر وهذا الألم جيدا

حدقت فى وجه حسين فكان كمن أصيب بضربة مبرحة على رأسه ولا يستطيع التركيز جيدا، التفت إلى زميلى وسألته:

- هل سكرت من قبل؟

أومأ لى برأسه، فسألته إن كان يذكر أى شى عن هذا، فاقترب مرة أخرى وهمس

كانت فضائح ليلة لا أريد تذكرها فضحت كل شىء كتمته منذ زمن

ومض ذلك الوميض فى رأسى، ووجدت الفكرة قد استولت على كاملا

اتخذت كافة الاستعدادات

لم يفهم حسين شيئا، واعتقد أن الأمر مجرد نزوة عابرة، وهذا ما كنت أحتاجه. رفيق لا يسأل عن شىء ولا يزعجنى، أما عن أمر التسجيل فلم يهتم كثيرا، ووافق على الأمر سريعا

بدأت سهرتنا بعد البروفة، قادنى حسين إلى أحد المحلات المعروفة، قمنا بشراء زجاجتين لا أعرف نوعهما، ولكنه أشار لى عند الشراء

نوعية ممتازة ثق بى

لم أعرف هل الامتياز يقصد به سرعة السكر وقوة التأثير أم شىء آخر، ولكننا ذهبنا إلى منزلى بعده، طوال الطريق كان حسين يصف لى ذلك الملكوت الذى سنذهب إليه عند بدء المفعول، وأنا أحاول إبعاد أية مخاوف أو أفكار عن ذهنى. فقط أريد أن أعرف ما لم أرد معرفته من قبل وأخفيته عن نفسى

قام هو بمهمة فتح الزجاجة الأولى، ثم قام بتشغيل بعض الأغنيات بصوت خفيض. نظرت مليا إلى ذلك السائل متسائلا إن كان سيساعدنى على معرفة نفسى حسنا ساعات وسأعرف كل شيء

آخر ما أتذكره أنى أحاول إبعاد حسين الذى مازال يحاول مساعدتى على شرب المزيد، أما عن المشهد الحالى فأنا وسط سرير مغطى بالقيء، نائم على بطنى

كان صداع عنيف يمزق رأسى بينما أحاول النهوض ومعرفة ما حدث أول ما جاء فى ذهنى كان التسجيل، فركضت مسرعا، ووجدت تليفونى ملقى على الأرض، قمت بتشغيله ووجدت التسجيل فعلا تسجيل لمدة ساعتين أو أكثر، اطمأننت وبدأت أعى ما حولى ها هو حسين على أرض الصالة يغط فى النوم. لا أتذكر ما حدث، ولكن معى تسجيلا فعلت كل ذلك من أجل الحصول عليه، ولكنى لا أستطيع سماع شيء الآن صداع رهيب. حسنا ربما بعد بعض الوقت سأستطيع معرفة ما لم أعرفه من قبل

- حسين. حسين.

نظر إلى أخيرا بعد أن قمت بهزه بعنف عدة مرات، بدأ فى التحرك ببطء ونهض من جلسته ونظر إلى باندهاش

- ماذا بك؟ لماذا تنظر إلى هكذا؟

لم يجب لثوان، فأدركت أنه لم يفق بعد، وأنه لابد مصاب بصداع مثلى؛ فتركته دقائق ليفيق، بعد ساعة كان كلانا قد أفاق تقريبا، وبدأ

الصداع فى الاختفاء تدريجيا، نظر هو إلى بينما يرتشف الشاى، وأخبرنى أنه لم يتخيل أنى سأطلق العنان لنفسى بهذا الشكل، اشتقت أكثر لمعرفة ما حدث، فأخبرته أن جزءا كبيرا من الأحداث قد تم تسجيله، وحان الوقت لسماع ما فعلناه، أومأ لى برأسه موافقا، فوضعت تليفونى المحمول فى المنتصف على منضدة صغيرة وقمت بتشغيل التسجيل

ظللنا صامتين نستمع فى استغراب ما حدث، وعندما انقطع التسجيل دخلنا فى نوبة من الضحك لم تنته إلا عندما بح صوتنا من كثرة الضحك

فى البداية بدأ أسلوب الحوار بيننا ينحط وازداد تدريجيا مع اشتداد السكر، تكلمنا عن كل مؤخرات أعضاء الفريق رجالا ونساء، لم يفلت من هذا أحمد راتب نفسه، أصواتنا كانت غريبة فقد كنا نتكلم تارة بمنتهى الجدية كأننا نناقش أمرا خطيرا، بينما الحوار يدور حول أحجام المؤخرات، وبعض التجارب المتخيلة عنها، وفجأة انفجر كلانا فى الضحك حتى قطع كل هذا حسين، وقال إنه يفتقد أمه بشدة، لحظات وبدأت موجة من البكاء عنيفة لحقته بها فى دقائق معدودة، لحظات وقمنا بالتشاجر وشتم كل منا الآخر شتائم قذرة لم أتلفظ بها فى حياتى أبدا بعدها أخبرت حسين أن مؤخرته جيدة؛ فعدنا لموجة جديدة من الضحك استمرت لدقائق أخرى. قررنا بعدها أن ننزل إلى الشارع ونذهب إلى أحمد راتب فى منزله لنخبره بأننا توصلنا إلى نظرية خطيرة قد تهدد المسرحية كلها، وهى أن حجم مؤخرات الفريق غير متناسب مع بعضه

استمعت إلى بقية التسجيل فى ذهول. هبطنا بالفعل بعد تعثر من الشقة، لا أعرف بالتحديد أين ذهبنا، ولكن يبدو أننا دخلنا العمارة المجاورة وطرقنا أحد الأبواب لنخبر الرجل أن حجم المؤخرات يهدد تناغم الفريق. بالطبع استمعنا إلى قدر لا بأس به من السباب ويبدو أنه قد دفعنا؛ لأنى سمعت أصوات تعثر وتأوه، لم تمض دقائق حتى عدنا إلى المنزل ليبدأ ديالوج أخير بينى وبين حسين قبل انقطاع التسجيل، وهذا نصه

- حسين. أنا خائف
- لماذا يا عزيزى؟ مؤخرتك جيدة.
- لا أريد تلك المسرحية. لا أريدها
- صدقنى مؤخرتك جيدة.
- لم أعد أنا من أ أنا؟

إمم

- هل تعرف أغضب كثيرا ولكنى أعجز عن الغضب. هل تعرف؟!

وهنا ينقطع صوت حسين الذى يغط فى نوم عميق بينما أواصل أنا مونولوج طويل

- هل أنا شرير للغاية أم طيب جدا؟ أنا هنا يا حسين. هنا منذ كثير جدا كثير لا أعرفه. حزين جدا فقدت أسرتى دون حزن. ولكنى الآن مرتبك مرتبك للغاية. أتعرفنى يا ؟ أتعرفنى؟ حسين.. أنا لا أعرف، حتى المؤخرات.. لا أعرف عنها شيئا.....

وهنا ينتهى الأمر بصوت ارتطام وينقطع التسجيل

*

- الأمر شديد البساطة إلى درجة التعقيد.

هكذا استهل أحمد راتب كلامه، كنت أنظر خفية إلى حسين وكأننا نشير فى غمز ولمز إلى وجوب نسيان ما حدث، أما أنا فلا أود أن أنسى، فلازلت أحاول الحصول على شيء، لا زلت لا أدرى شيئا

- لا يوجد نص

حملق كل واحد فى الآخر فى انتظار أى ردة فعل، اعتقد البعض فى البداية أن أحمد راتب يلقى إحدى نكاته غير المعهودة، لكن الصمت الثقيل ظل يخيم مدة طويلة على المكان بلا كلمة واحدة، طوال الوقت كان الجميع يسألون راتب عن النص وكان دوما يتهرب من الإجابة حتى قالها الآن وكررها على مسامعنا

- نعم لا يوجد نص.

أكدها مرة أخرى وأعطى إشارة البدء، هاج الجميع بينما أنا صامت قابع فى مكانى دون كلمة واحدة، وكأن الأمر لا يخصنى صرخ الجميع فى وجهه لماذا كل تلك التدريبات إذن؟ وما هذا العبث وما الهدف من إضاعة الوقت؟، ظل أحمد راتب كما هو صامتا لا يجيب، بدأ البعض السباب، وهو كما هو، انصرف ثلاثة من الفريق وهم يحاولون إقناع البقية بالانسحاب، ظل الغالبية فى تردد لا يعرفون ماذا يفعلون، بينما يحاول بعضهم إقناع أحمد راتب بالتكلم والإفصاح عن السبب، أخيرا نطق

- طوال العمر أحلم بخلق حالة مسرحية لم يخلقها أحد من قبل الحقيقة تتجاوز نصوصنا وأفكارنا وكلماتنا، ماذا إن حاولنا تصفية نفوسنا وأفكارنا وعقولنا من كافة الأفكار المسبقة؟ تلك الخشبة أضحت فى الفترة الأخيرة مكانا لذاكرة ميتة هناك أزمة. يجب أن نعترف بها، ولا يجب أن نحاول الهروب فقط يجب أن نبدأ فى خلق جديد.

صمت قليلا فتكلم أحدهم

- وماذا تريد؟ أو ماذا تقترح؟

- أريد خشبة ننطق عليها بالحقيقة، حقيقة نبتديها بنسيان كل أفكارنا المسبقة، وكل النصوص المفتعلة.

- هل يوجد نظام أو طريقة لذلك؟

- إن اتبعنا طريقة جاهزة فسينتهى بنا الأمر إلى الكذب مرة أخرى.

خيم الصمت مرة أخرى، كان أحمد راتب قد أنهى كلماته فى سرعة شديدة وكأنه رمى حملا ثقيلا من على كتفيه، قطعت الصمت الطويل رافعا يدى مخبرا إياه أمام الجميع أنى سأشاركك النسيان لأبدأ خلقا جديدا

***

كم كان الأمر بسيطًا، وكم كان مرعبا

إنها خطوات بسيطة. فقط تحتاج إلى التوقف قليلا والتحرر من مواصلة العبث للسكون والتأمل، كنا نخصص أوقاتا من البروفات

للتأمل ، انخفض عددنا إلى ستة ممثلين فقط ، أحمد راتب نفسه كان يواصل التأمل معنا نصف اليوم فى التأمل والصمت ، ونصفه الآخر فى الحديث بحرية عن كافة المشكلات ، قاعدة واحدة نتذكرها إلغاء الذاكرة قدر الإمكان ، الحقيقة متحركة وحية فى كل لحظة أما نحن فنتجمد حيث ما ورثناه .

فى البداية ظننت أن أحمد راتب يهدف إلى عرض ارتجالى ، وهذا ليس جديدا صحيح أنه شبه نادر إلا أن هناك بعض الفرق التجريبية التى تدعى ذلك . فى واقع الأمر تأخذ شكلا ارتجاليا ولكنها مرتبة وجاهزة بالاحتمالات ، مع الوقت بدأت أعى أفكار راتب ، اتضح لى وللبقية أن الأمر يتعدى عرض ارتجالى بعدة أميال ، ببساطة كما أخبرنا راتب نفسه أنه يريد عمل تحليل نفسى جماعى واكتشاف ، سألناه عما يقصد ، فقال إنه فى العملية التحليلية يهدف الطبيب إلى جعل لا وعى المريض وعيا واضحا أمامه ، أما نحن فسنهدف إلى عملية مزدوجة على تلك الخشبة علاج أنفسنا ومكاشفة الجماهير أيضا

لم يستطع أحدنا تصور ما ينتويه راتب ، مع كل يوم يمر نتأكد أنه لا يملك تقنية واضحة أو شكلا معينا يهدف له ، يحلم بخلق حالة من الحقيقة يستطيع فيها الجمهور والممثلين الغوص فى أنفسهم ويتوقفون عن الركض المتواصل فى عماء .

قبل أن أغوص فى النوم ، فكرت فى تسجيل أحلامى عند الاستيقاظ . وضعت بعض الأوراق وقلم جوار فراشى وأغمضت

عيني. ظللت ساعات أصارع النوم بلا فائدة، لم أحلم بشيء لقلقي؛ فنهضت في الفجر من على الفراش واستلقيت على الأريكة قليلا، فكرت في أن أقرأ قليلا فربما ساعدني ذلك على نوم أعمق، أحضرت كتابا عن محاكم التفتيش وجدته بالصدفة في مكتبتي في انتظار القراءة منذ شهر

بدأت في التهام السطور، وكنت أغفو قليلا في المنتصف، شعرت أني أرى أناسا وسط السطور أو ربما في لحظات غفوتي البسيطة، نهضت من مكاني وبللت وجهي بالماء البارد محاولا أن أفيق، نظرت مرة أخرى إلى السطور لكن تلك المرة لم يستغرق الأمر طويلا حتى غصت في نوم عميق

طبقة الوعى الثالثة

أتوق إلى تلك الارتعاشة فأغمض عينى لأتواصل مع عوالم عدة فى لحظات تنتهى قبل أن تبدأ، أحاول تكثيف الزمن مرات عديدة للوصول إلى تلك النشوة الهائلة، أرى النباتات والحيوانات والشموس والأقمار أكوان عديدة وطبقات من الزمن لا أنتهى من خلقها متراتبة ومتداخلة أحيانا، تتسع بصيرتى حتى يأتى ذلك الوميض الساطع وأفتح عينى فأنظر وجهه بعد أن أتنهد، ألمس خديه وأسأله عن شعوره فيجيبنى لارا أنا سعيييييد.

أنهض من على فراشه وأبدأ فى ارتداء ملابسى، أجده ما زال ينظر إلى نظرة تؤرقها نظرات أعرفها جيدا، تلك التى تحوم حول الذنب، ألتفت بكاملى إليه أرد نظراته تلك بمزيد من الرغبة، أدنو منه أكثر وأنتزع ما بدأت ارتدائه من ملابسى. أسمح له بمزيد اقتراب لأدفن رأسه داخل دفتى صدرى قائلة:

- لن تعطيك كنيستك تلك المتعة والسعادة حاول فقط أن تحيا سعيدا انس كل تلك السموم القاتلة واستمتع بما تبقى لك فى هذا العالم، وإلا لن تستطيع أن تستمتع فى عالم آخر

- وماذا إن تعذبت فى عالم آخر جراء فعلتى تلك؟

أمسكت رأسه وهززتها قائلة

- أنت عالمك. كل ما تريده يكون لك. إن أردت العذاب ستعذب، وإن أردت الخلود والحب ستحصل عليهما

أكملت ارتداء ملابسى مرة أخرى وانصرفت فى تلك الساعة المبكرة فى الصباح من بيت ذلك الرجل الذى نسيت حتى اسمه بعد انصرافى، أردت فقط تعليمه احترام الجسد وقداسة المتعة، غطيت وجهى جيدا بوشاح سميك، لامس الهواء وشاحى وانتابتنى غيرة من ذلك الوشاح سارق النسمة المنعشة ولكنى احتطت جيدا للأمر، مررت بالكنيسة بينما أجراسها تنتصر لبعض تلك الحشرات من رجال الدين، لا يمنعهم التظاهر بالفضيلة من الحملقة. رشمت الصليب أمام الكنيسة حتى اختفيت عن أنظارهم مسرعة.

لو أتنفس حريتى كاملة مرة واحدة! هل يضرهم سعادتى بالجنس أو الجمال أو التأمل؟ هل يتألمون من عودتى لصفائى؟ وصلت إلى منزلى الصغير فى تلك المنطقة المنعزلة على أطراف الجبل وأغلقت من خلفى الباب؛ لأدخل عالمى دون إزعاج، النوافذ والأبواب مغلقة وأنا هنا ملكة وحدى.

أغمضت عينى. جلست فى تلك الوضعية وقمت بتنظيم أنفاسى، فى البداية آلاف الأفكار كانت تهاجم رأسى، وبعد فترة أستطيع أن أجعل من صوت زفيرى وشهيقى سيمفونية تملك أذناى، أزداد غوصا فى الأنفاس؛ حتى يخفت صوتها تدريجيا ولا يعود شيء سوى الصمت، بعد مدة طويلة أفقد شعورى بالعالم كله لأغوص فى طبقات عميقة متتالية وأرى الزمن متوقفا بينما أنا أنتقل من طبقة إلى أخرى ومن عالم إلى آخر

اليوم رأيتنى أركض خلفه بينما هو ينصرف دون أن يرانى، أنقسم ويذوب نصفى أحاول اجتذابه بحرارتى وذوبانى، أنطلق مسرعة لأحاصره حتى يستسلم لى ويقبل فى الذوبان لا يردنى خائبة أبدا يعود كلما زادت حرارتى يستسلم لذوبانى ونتماهى. يحول اشتعالى إلى أنوار؛ فتعود إلى نصفى الواقف وتذوب كلها فى ألوان بديعة منطلقة عبر الأكوان تحيط البشر وتنير الظلام. وتنير ظلامى

انفتحت عينى ووجدتنى ساكنة فى وسط المنزل، نهضت من جلستى وتفكرت قليلا فى المعجزة اليومية التى أعيشها، لم تعد العجائب والغرائب تذهلنى فقد عرفت جيدا الاستمتاع عالمة أنى أصفو بروحى وأسعد بجسدى.

أسكب روحى فى طهوى وأتناول الطعام وسط أجواء السعادة. فقط يزداد اشتياقى لظهوره بعد أن تكاثفت الرؤى فى الفترة الأخيرة حوله... ذاك الذى يكملنى... توأم روحى.

الحياة منهكة وسط ذلك الموت..

أسير كل يوم فى الشوارع وأود لو أخبرهم أنهم أموات يسيرون فى مقبرة عتيقة متعفنة، يقتاتون على الموت كغذاء يومى خوفًا من الحياة، يخبروننى عن القوانين والكنائس ورجال الدين والنبلاء وكل هذا الهراء لولا إغماضة عينى وانسحابى لأتواصل مع القوة الكونية كل يوم لفقدت ذاكرة الحياة ومت مثلهم، إلا أنى الآن أشتاق إلى مزيد من السحر

أمسكت برأسها وأخبرتها أن تغمض عينيها، أسندت رأسها إلى وسادة بعد أن استلقت على ظهرها، بدأت فى تلمس أطرافها ورأسها وتمتمت بصوت خفيض بتلك الصلوات. أتلمس قوة من المقدس لسيمون الراقدة أمامى.

استغرق الأمر وقتا طويلا لتنهض وتخبرنى أنها استلقت وسط أحلام ورؤى كثيرة، أومأت لها بالإيجاب وبدأت فى التحدث معها مباشرة.

حان وقت التغيير الحقيقى. لم أعد بقادرة على انتظار دورة أخرى وبعث آخر فى طبقة أخرى، من المفترض أن يتم التغيير الآن فقد وصل الظلام إلى منتهاه وحان وقت نهايته، أخبرتها عن الحياة والحب والمتعة والمقدس. أخبرتها أننا لسنا خطاة وأن آلام معدتها وشعورها بالنعاس المتواصل يسببه شعور بالذنب تحمله فى أنفاسها أينما سارت، بتأثير كذبة الحياة وقاتليها فى الكنيسة. أخبرتها أنها يجب أن تكف عن الموت وتقرر الحياة، أخبرتها أن تكف عن

قولها كل يوم: ارحمنى يا رب أنا الخاطئ لأنها ليست خاطئة لماذا يزرعون فينا ذلك الشعور بالذنب والحياء طوال الوقت؟؟ علمونا الخطية وقتلوا فينا الحياة وزرعوا فكرة الدنس حتى يستطيعوا السيطرة على عقولنا وأرواحنا

أخبرت تلك المرأة التى تدعى سيمون بكل ذلك وهى صامتة تحدق فى ودموعها تنهمر، أخبرتنى أنها تندم الآن عن عمر تم سرقته بخسة منها ابتسمت فى داخلى وشعرت أنى أكتسب مزيدا من القوة لست بمفردى الآن.

قدمت إلى منحة مادية بسيطة قبلتها من يد المقدس، فها هو الآن يرعانى منذ قررت أن أنفصل عن كل ذلك الكذب وأنشر رسالة حبه فى كل مكان. طفت بالعديد من المنازل واستخدمت كل معرفتى الروحية التى اكتسبتها عبر أعوام طويلة فى علاج الناس، علاجهم من الخوف والكراهية والشعور بالذنب الذى يودى بهم إلى العديد من الأمراض العضوية

تلك المرأة واصلت التواجد معى تلك الأيام وأخبرتنى أنها تريد تعلم الحياة بشكل جديد مكثف وكامل، كنت أستقبلها كل يوم فى منزلى نقضى عدة ساعات سويا، علمتها كيف تعد طعاما تسكب فيه جزءا من روحها وتستمتع بكل ما حبانا به المقدس، انطلقنا مرات عديدة إلى الجبال من خلف منزلى، وقضينا ساعات الشروق والغروب الرائعة وسط أحضانه. سمعنا أصوات الجبال والطيور والحيوانات تسبح وتخبر بالحب، وتماهينا مع أرواحها فى رحلات

عديدة عبر أرواحنا ليزيد اشتياقنا إلى طبقة أخرى من الحياة أشد كثافة، لكنى أخبرتها أنى لم أعد أستطيع الانتظار أعواما أخرى، سألتنى وماذا نستطيع عمله وسط تلك المحاكمات والقتل سوى نشر دعوتنا فى سرية تامة؟ أخبرتها أنى لا أعرف الآن ولكن ربما علينا تطوير الأمر

***

خرج الموكب من ساحة السجن فى صباح ذلك اليوم بينما كنت أنا وسيمون نسير فى الشوارع عائدتين من جولة جبلية، فوجئنا بذلك الجمع الغفير فلحقنا بهم ورأينا

بعض تلاميذ المدارس برفقة حشرات الدين وبصحبة عدد ضخم يتجاوز الآلاف يحملون رايات دينية، من خلفهم بعض السجناء والأغلال فى رقابهم، كان الحراس يحملون المشاعل وكنتُ أرى فى ذهنى نارا تحرق ذلك الجمع الأخرس الواقف فى صمت يرقب المذبحة، ريموند كونت تولوز اختفى من الصورة نهائيا ولم يسمع أحد شيئا بخصوصه، وفى المقدمة يسير الراهب السفاح جويلم دى أرنود، يسير بجوار جويلم بقية أعضاء الديوان المدنس يختالون فى ثيابهم القبيحة، من خلف الجميع جماعات وجماعات من قطيع من الأغنام نسير فى وسطه ولا يفتحون أفواههم.

شعرت بالنار تحرقنى ووددت عدة مرات أن أفعل شيئا، لكن يد سيمون تضغط على وعينيها تدمعان، بدأوا يعدون أكوام من الحطب وأقارب المحكوم عليهم بالإعدام ينظرون فى عجز حقير إلى المشهد.

بدأ بعض الكهنة يعظون عظات غبية بل طلب أحدهم من أقارب المحكوم عليهم بالإعدام أن يضرموا النار بيدهم؛ ليتطهروا من دنس الهرطقة التى أصابت أقاربهم، وصل جويلم أخيرا وسط الميدان وقال بصوت مدو

- أقسم أن كل ما يعمله ديوان التفتيش وكل ما يجريه من الأحكام إنما هو مطابق لتعاليم الكنيسة الرسولية الرومانية. ومطابق لشرائع البلاد التى ترمى إلى التطهر من الكفرة والزندقة وأصحاب التعاليم الشيطانية، ليبارك الله الملك مادام مساندا لشرائع الديوان المقدس وشرائع الكنيسة الرسولية.

اقترب بعدها جويلم من المحكوم عليهم واحدا واحدا وفى يده وثيقة توبة يحاول استمالتهم بها قبل أن يضرم النيران فى جسدهم. وقع الأول والثانى لتبدأ مشاورات الحكم عليهم بعد استتابتهم، بينما صرخ الثالث

هذا العالم من خلق الشرير سنظل نحتقره حتى نتطهر من أجسادنا النتنة ومن مناظركم العفنة يا دود الأرض هيا هيا أسرعوا بى إلى الموت إلى التحرر

رشم جويلم الصليب وهو يصرخ

- قد سمعتم بأنفسكم.

بدأ إضرام النيران فى أجساد هؤلاء الذين رفضوا التوبة، تجاوزت نظراتى النيران إلى عيون الجمع الغاضب أغمضت عينى بعدها قليلا محاولة استحضار كل طاقة الغضب المزروعة فى قلوبهم، صرخ

البعض من الغضب وآخرين يهدئون من ثورتهم حتى تحولت الأجساد إلى رماد. انتهت الصرخات وانصرف الجميع إلى ديارهم، عادت سيمون إلى بيتها ولم تعد أبدا إلى نفسها منذ ذلك المشهد.

***

منذ البداية علمت أن الوقت حان للقسمة وأن ذلك الوسط المائع لن يستمر طويلا، مررت بتلك اللحظات فى الماضى، أعرف عنها عندما قررت الانفصال عن أبى وأمى والرحيل خلف حلمى، كانت ليلة معتمة.

لم يكن سوى نور قلبى وحده. سرت خلفه فى تصميم وركبت خلفه على جواده لنهرب سويا، حاول العديد من المرات الزواج بى، ولكن فى كل مرة كان أبى يرفض وأمى تؤيده فى صمت، أخبرنى أبى أنه قادر على تحطيم حياتى الروحية! ظللت أتساءل ما تلك الحياة، فأنا لا أرى سوى بعض الكلمات الرنانة التى يرطن بها الجميع حول روح لا يستطيع أحد أن يراها، وما شأن كل تلك الضوضاء حول أمور لا نراها بأعيننا ولا البقية يرونها حتى بقلوبهم، حياة فارغة كاذبة لا تحمل سوى الهروب خوفًا من التحطم.

فى الليلة الأخيرة قبل الهروب اقتربت منى أمى، وهمست فى أذنى بعيدا عن أبى

- لن تستطيعى تحمل الحياة بمفردك، الحرية مرعبة

منذ تلك اللحظة بدأت أمور كثيرة تتضح أمام عينى، ربما كانت تشعر بقرار هروبى فحذرتنى، لم تسعد يوما واحدًا مع أبى ولم يكن أمامها بديل.

هربت بحياتى وقررت أن أنفصل عن ذلك الجحيم الذى لا ينتج سوى أنصاف بشر متواكلين، إما على آخرين أو على أوهام وأكاذيب، لم تمض دقائق حتى كنت فى وسط الغابة ليلا لا يضىء أمامى الطريق سوى شعلة يمسك بها من توهمت أنه شريك عمرى.

فى منتصف الطريق أخبرنى أنه يود التوقف قليلا فنزلنا من على الجواد. لا يضىء ظلمتنا سوى شعلته ونور قلبى، ابتعدت عن الحصان قليلا أرقب الأشجار وقلبى يدق فى فرح يحاول غلبة الخوف كله، سمعت خلفى صوت الجواد يعلو قليلا، فالتفت وجدته قد امتطى جواده وانطلق مسرعا به مبتعدا بعد أن استولى على الذهب القليل الذى أحضرته معى بناء على طلبه.

وجدتنى بمفردى فى الظلام الحالك فى وسط الغابة بعيدة بأميال عن أى قرية، كما أنى الآن فى الظلام الحالك فى بيتى بعيدة بسنوات من الوعى عن العقول والقلوب من حولى

كان الخوف يغزونى وقتها، لكنى لم أفكر فى العودة أبدا شىء ما بقلبى كان يصرخ بأنى على صواب وأنها مجرد عقبة فى بداية الطريق. أريد أن أبتعد عن كل ذلك الكذب علمت بعدها أن الجميع يرتبطون برباطات حيوية ليست من الحب والتواصل إنما من العجز والخوف. الجميع يطمئن الآخرين بأنهم على الطريق الصواب وما من معز فى تلك الوحدة الوجودية سوى الأوهام والأكاذيب، وها أنا الآن أمزق تلك الأكاذيب وأدفع الثمن لأعوام، وحان وقت الحصاد.

قضيت الليلة الأكثر ظلاما فى عمرى كله معرضة لكل أنواع الموت، أغمضت عينى وأخبرت المقدس أنه اختار لى ذلك الطريق وأنى اخترت الحب والحرية اخترت الحياة حتى وإن بدت موت

فى عمق الغابة كان الموت يهددنى ويحاصرنى من كل ناحية، وعندما أتى الصباح فتحت عينى، مزيج من الخوف والقلق، والأمل من بعيد يلوح. كانت اللحظات الحاسمة فى عمرى كله، أدرت رأسى وفكرت عدة مرات فى العودة، وقتها فكرت فى كل الاحتمالات الممكنة، أنا على مفترق الطرق، إما أن أعود إلى بيتى والأمان المرتقب، أو أكمل حياتى كلها فى المجهول، انهمرت دموعى وبكيت وصرخت بصوت مرتفع، وانتحبت. تمرغت فى التراب نهضت ووجدتنى لا ألتفت إلى الوراء، نظرت إلى الأمام وأكملت طريقى حتى انتقلت للإقامة فى تلك البلدة التى أعيش فيها الآن بعد أحداث عديدة ،وجدت نفسى أمام خيارين إما أن أعود وأنسى كل شىء أو أكمل طريقى بذلك الثمن الفادح الذى قد يكلفنى حياتى، اخترت وقتها رغم الخوف أن أكمل

أستيقظ باكرا اليوم بعد تذكرى لكل ما حدث لتغمرنى الشمس بدفئها وأجد الحياة تحتضنى، ولكنى أشعر أن شيئا ما سيحدث، فالحرب قد بدأت بالفعل

بدأت كل الأمور عندما أعلنت الكنيسة أنها تفتح الباب لاستتابة كل المهرطقين ، عانى الكثيرون هنا فى الأيام الأخيرة معاناة متواصلة فى حربهم ضد الكنيسة طوال تلك المدة، الكنيسة

تنتظر فرص إرادتها هنا فى الجنوب كما فعلت فى فرنسا، لكننا هنا فى الجنوب شعبا مختلفا، فى الشمال الريفى الجميع غارق فى الظلام والجهل لا يعى شيئا سوى سلطة ملك فرنسا والكنيسة، أما هنا فى الجنوب فاللغة مختلفة والمجتمع ليس ريفيا، وما يطلقون عليه هرطقة له العديد من الأتباع.

أشعر أن سيمون استحضرت بالأمس عندما شاهدت الحريق يدب فى أجساد البعض كل الخوف الممكن استحضاره. أشعر أنها على وشك التراجع، وشيئا ما يدب فى داخلى يخبرنى أن الدماء ستزيد.

أفواج الجماهير أذهلت الرهبان الدومينكان والكنيسة بأسرها وكأن الجميع قد فقدوا للحظات قدرتهم على المقاومة واستولى الخوف على كيانهم بالكامل؛ فأطاعوا أمر الكنيسة بعد أن ملوا المقاومة وذهبوا للاستتابة، ما حدث بعد ذلك كان أمرا مذهلا

بدأت الخيانات والاعترافات تنهمر كالسيل حتى أن رجال الكنيسة أرسلوا فى طلب المزيد، لم تمر سوى أيام قليلة حتى كانت الكشوفات قد أعدت؛ فتشجع رئيس الكهنة بونجى سانت جيل وبدأ فى القبض على بقية المهرطقين الذين رفضوا الاعتراف.

سيل الخيانة أكد لى الدماء المزمع سفكها فى تلك الأيام، الليل أصبح موحشا، والأطفال يعيشون فى خوف دائم، الزوجات فى انتظار رجال الديوان المدنس للقبض على أزواجهن، وربما هن الأخريات سيلحقن بهم.

لمدة أسبوع كامل كنت أستيقظ فى موعدى عند الفجر وأخرج إلى الشوارع، وأرى بعينى الجثث متناثرة والدماء تغطى مناطق بأكملها، صوت الصراخ فى الليل أصبح جزءا من عادات وتقاليد الجنوب. المدينة تكافأ الآن على خيانتها، وأنا أرى قوات الظلام تصارع بعضها، الكنيسة تصر على إخضاع كافة المتمردين، وأهل المدينة يكرهون الحياة ويعلمون بدنس الزواج وعدم تجسد المسيح ورفض المادة، ثم يخونون إخوانهم وتصبح الاعترافات أدلة على خيانة آخرين

بدأ الجميع فى الصراخ عندما مر اليوم السابع وحملات ديوان التفتيش على أشدها، والإشاعات تتوالى حول طرق ووسائل التعذيب فى تلك المخابئ الجهنمية، انقطعت زيارات سيمون عنى تماما وبدأ شعورى يتأكد باقتراب حدوث الكارثة.

استيقظت المدينة كلها يوما على حادث هو الأول من نوعه، رأينا بأعيننا جثة أحد أشرس أعضاء الديوان المدنس ومحكمة التفتيش راقدة وسط الثلوج والدماء متجلطة حولها، لم يلبث بقية الرهبان أن عرفوا وأتوا مسرعين لينتشلوا جثة صاحبهم، عرف الجميع أن حربا دموية سوف تبدأ من اليوم.

اعتدنا على رؤية الدماء كل يوم إما من المواطنين المقبوض عليهم من محكمة التفتيش أو من أعضاء الديوان الذين تعرضوا لاغتيالات عديدة بعد أن تشجع البعض وتكونت جمعيات سرية لمحاربة ذلك الديوان، عرفنا بعدها أن ريموند كونت تولوز بدأ فى التحرك هو

الآخر ليحاول إيقاف تلك المحاكمات الوحشية. بالطبع حسابات المصالح لن يستطيع أحد التنبؤ بها، النتيجة الفعلية لكل ذلك كانت مزيدا من الدماء من الطرفين، كان الوجه الظاهر هو وجه ذلك الراهب الدومينكانى البغيض جويلم أرنود الذى تولى الحرب ضد الهراطقة كما يسميهم.

نظرات قصيرة كنت أختطفها إلى وجوه هؤلاء الرهبان أعلمتنى أن الأمر يتجاوز حب السلطة. الرهبان والأهالى صار غذاء الطرفين الرئيسى الدم. تحرك كل منهم مشاعر ترفض الحياة بقوة، كيف أستطيع التحرك وسط كل هذا العنف أيها المقدس؟

واصلت ما أستطيع فعله ولكن فى سرية أكبر فقد صرت مهددة بأن يختطفنى أعضاء الديوان فى أى لحظة لتتم محاكمتى، وآلاف التهم جاهزة لأمثالى.

فى الليلة السابقة كنت فى بيت إحدى السيدات التى أصيبت بصداع يمزق رأسها سألتنى المجىء، حدقت فى وجهها عيناها ترمى إلى شرا وكراهية، بمجرد الحديث معها كنت فى تمام التأكد من سبب الصداع، يكاد الغل والشر والكراهية أن يصيبوها بشلل تام، ظلت تسب رجال الديوان ومحكمة التفتيش، وتدعو الرب أن يعذبهم أشد العذاب بعد أن عذبوا أخيها عذابا شديدا، تعجبت للغاية وتساءلت عن علاقة كل هذه الحرب بالمسيح؟ لم تجب؛ فزاد شرحى

- أنا شخصيا لا أؤمن أنه إله بالمعنى المألوف لديهم، ولكنه استطاع التعبير عن الجانب الإلهى بداخله حتى المنتهى، هذا الجانب

موجود فينا جميعا إنه المعلم الأعظم، سامح هو قتلته، أما أتباعه يقتلون بعضهم البعض ويكرهون الحياة ويكرهون أنفسهم.

بالطبع لم تول أى انتباه لكلماتى وظلت على حالها، ولن يفاجئنى إصابتها بمرض خطير فى غضون أيام؛ فتركتها

بعدما عدت إلى منزلى استغرقت فى نوم عميق أفقت منه على صوت الباب، ظل يطرق الباب بقوة فى عمق الليل، لأجد صوتا بداخلى يطرق هو الآخر، نهضت مفزوعة من على فراشى أحاول الاستيقاظ وأحاول الخروج من رؤى كثيرة حول توأم روحى.

تساءلت عن الطارق، فوجدت صوتا غريبا يتوسلنى أن أفتح الباب، فهو مطارد أعضاء الديوان، ظللت صامتة لثوان لا أدر ماذا أفعل، صوتا يخبرنى بأنى يجب أن أفتح، وصوتا آخر يؤكد أنى ما إن أفتح ذلك الباب حتى لا أستطيع إغلاقه أبدا، تذكرت وحدتى فى الغابة ثم استجمعت شجاعتى، تذكرت نور الصباح الباهر المبارك الذى غمرنى وقتها وفتحت الباب

***

ظن أننى أهاب ذلك الفزع الذى زاد وجهه حرارة، إلا أننى كنت قد رودت فزعى منذ الصغر

اقتحم منزلى لظنه أن فيه النجاة، حدقتُ النظر فى فزعه فى حين تحاول عيناه تتبع سمعها للأقدام خارجا، وبعد السكون استقرت عيناه بكامل فزعها إلى ونطق

- أنا هارب.

- نحن جميعا هاربون، أعضاء الديوان. هؤلاء الحمقى حتى من لجأ إليهم هو فى الحقيقة هارب من بطشهم لا أكثر

طمأنته بشكل ربما زاد فزعه، رددت عليه أنا وحيدة بالمنزل وأنى فى استعداد لاستضافته إلى موعد رحيل يراه مناسبا، سمع بعض كلماتى حينا وزاغ ببصره أحيانا كثيرة متابعا الأصوات بالخارج احتفظ صوتى بنفس النبرة ورحت أشرح له كل صوت يدور بالخارج كانت كلها أصوات مألوفة. صوت جاراتى. عراك أطفال. إلا أن فزعه كان كفزع انتظار قيامة.

مرت ساعات ظل فيها واقفا بمكانه حتى خانته قدماه، بدأ فى الإحساس بالتعب. هكذا علمت أنه بدأ بالاطمئنان. بدأت أنا ساعتها بالتحرك إلى الداخل، حاول التحديق فى لإرهابى وربما لإجبارى على الجلوس أمام ناظريه، إلا أننى أعرف معنى تلك النظرات، بدى جسده فى الانفكاك من ذلك التشنج حين بدأت الكلام:

- سأجلب لك شيئا تأكله.

- لا داع، فقط أريد ماء

- سأجلب طعاما لنا، وشيئا ينشر فينا الدفء

بدأ محاولا التحديق من جديد وبدأ جسده يظهر تشنجا

يمكنك مرافقتى للداخل، لا تقلق.

رافقنى إلى حيث الطعام كان يبدو شديد الجوع متعب الجسد، بدأ الأكل سريعا جدا ربما ظننته يقذف الطعام إلى معدته مباشرة، وبدون تدرج توقف عن الأكل فجأة رافعا رأسه إلى.

أشكرك

تاه في النوم على نفس مقعده، تركته ومضيت إلى فراشي، كان الصباح قد أوشك على الكمال، تركته ونمت

يومي الجديد لم يبدأ مع الصباح كعادته، بدأ يومي عصرا حين استيقظت ووجدته يحاول تنظيف ما ظهر من جسده المتسخ، نبهته باسيقاظي سائلة

ما اسمك؟

جان لست لصا

لم أقل ذلك أنت هارب فقط، أليس كذلك؟

بلى

أدار وجهه ناحية الباب آمرا بأن أمارس حياتي بشكل طبيعي، إلا أنه ليس بحاجة لتنبيهي أنه في كامل تركيزه وأنني لن أفلت إن حاولت البوح بوجوده هنا، إلتفت إلى خافضا صوته بأنه سمع نداء بالصباح يكافئ من يشي به، زاد اقترابه إلى هامسا في أذني.

ظننت أنها لحظة التهديد بالقتل، ما الذي على هارب فعله ليضمن سلامة بقائه في دار يجهلها، كانت مفاجأتي حين همس في تهديد

لن يتركك ضميرك تحيين بما ستسدين إلى من شر إن بحت بوجودي.

هل هذا هو ما عليك تهديدي به، لربما أنت أيضا من أعضاء الديوان، لربما أنت أحد المجانين حقا، وماذا في الجنون؟ الجنون أصدق

من العيش فى العبث ، الجنون ليس عبثا ، الجنون طريقة حياة

الآن أعيش على ما تهبه الأقدار إلى بعد ليلتى الثانية معه أوضحت له طبيعة ما أفعل ، وأنى بحاجة لاستضافة البعض فى بيتى ليروا رحلة الشفاء خلالى وأعيش على ما يهبون إلى ، نظر ناحيتى كنظرة عاقل إلى مجنون ، لم أعبأ به لأنى شغلت عن جهله بما أعمل بسماع موافقته وعدم قلقه من الزائرين ، وهذا ما حدث

أعددت لكلينا طعاما ، أعرف كم يسلب طعامى العقول ، وأحتار حين أرقب طريقته فى الطعام ، لاحظت إقباله الشديد ثم حرمانه المفاجى لنفسه رغم نظراته التى لا تزوغ عنه إلا بإزاحتى له

مرت ليال كثيرة لم أعد أتذكر عددها رافقنى إلى عالمى رغم اختبائه خلف الجدران ، زاد غوصا إلى تفاصيلى . طريقة طهوى ، إعدادى جلسات العلاج ، تنظيف بيتى ، أدركت معنى كل نظراته بدا لى طفلا فى كثير من الأحيان يعبث بممتلكاتى غير مدرك لها قيمة سوى قيمة العبث ، وبدى ناسكا حين رقبته متضرعا فى جوف الليل ، لم أعبأ بداية بأى سبب وراء تلك الدموع المنهمرة من عينيه ؛ فقد يحتاج الإنسان إلى مثلها للتواصل مع مقدساته ، لكننى أدركت بعدها أن تلك الدموع ربما تربطنى بها أشياء .

أنا التى لم تعبأ يوما بما بعد الارتعاشات وجدتنى فى أمس الحاجة لنظراته بعد النشوة ، ربما خبأ لى هو جسدا جديدا لم أكتشفه بعد ، ربما أردت تأكيدا لكونى لست فقط أنثاه ، أردت إزاحة الحرمان والرغبات عنه لأكتشف من نظراته الحب . كانت نظراته دائما بما لا أتوقع ولا أعِى . هدوء لم أفهمه .

رقبته فى تلك المرة لأرى كيف يبدأ ليله بعدى، يغمض عينيه بداية ليستمر نومى ثم يتحرك بهدوء خارجا يبدأ فى إزاحة أى شىء تعلق به منى يغسل جسده مرارا كأنه يزيح عنه أوساخ غاباتى العتيقة، يتمتم باسم المسيح أن يغفر خطاياه، يخطف جسده من تحت الماء رغما عنه بعد أن يفضح جلده إحمرار قسوته، يترك نفسه عاريا يخطو خطوات قليلة حتى يقابل النافذة ويخر أرضا يفضحه لى ذلك النشيج باسم المسيح

فى يومى التالى بالغت فى أنواع الطعام. كعادته أبدى استياءه من البذخ ونظراته تلتهم كل ما تقع عليه، سألته عن سبب استيائه فى نبرة جادة، أجاب بأن النعيم الزائف كفقاعات الصابون، وأننا إن آثرناه أصبحنا عبيدا للشيطان، أشرت له متسائلة

- هل تعرف أى نوع ألذ أطعمتى

- وكيف لى أن أعرف ! سأتذوقه انتظرى.

جذبت يده ناحيتى قبل أن تمتد إلى الطعام.

- يجب أن تعرف دون تذوق

ضحك وظننى أمازحه، هدأ صوتى وتمسكت بنبرة جادة

- هذا ما تظن أنك فاعله. كيف لك أن تدرك النعيم ما لم تنعمه كيف لك أن تستشعر حلاوة شىء وأنت لا تعرف سوى عذوبة الماء ومرارة الضعف. أنت تستحقر ما تشتهيه حقيقة... وهذا ليس لشىء سوى لضعفك.

تجنبت بعدها مثل تلك الأحاديث فتلك المرة احتدت فيها نبرتى بالاتهام. قررت أن تعود إلى حكمتى، وأن أعبر بروحه من لحظته إلى عصوره الماضية؛ ليكتشف أنه موهوب بحيواته وليس بهذا العجز الذى صنعه لنفسه.

حاولت جذبه من وراء حائطه ليرى عالمًا جديدا لربما يدرك ما أعمته الكراهية والخوف عنه فى عالم الحيوات أردت أن يطوف. أردت أن يرى لحظة التذكر والنجاة التى تلمع فى العيون، وأردته لا يكمل أبدا ما أكمله بعدها

كانت كبقية الزائرات إلا أنها زادت فى عطيتى لغناها ، ظلت تتحدث عن نفسها كثيرا، أدركت نمط تلك الشخصية منذ بداية كل جملة تتفوه بأولها (أنا) هى لا تحب أن تهزم مهما كانت النتائج، شكت لى غيرة رفيقاتها غيرة أخواتها حتى غيرة رجالها، هى سيدة الجبال بما أورثتها الجبال من قوة وجمال.. سألتها عن مشكلتها لتتضح لى أكثر قالت إنها فقط تريد ألا يحقد عليها الأخرون.

حاولت مرارا أن أصور لها حقد الآخرين تعاسة يجلبها الحاقد لنفسه وأن لها أن تتركهم وحقدهم ما دامت لم تتأذ منهم. أصرت على أن انتصارها يأتى بالتغلب عليهم. أومأت نافية إلا أننى مثلت لها كما ألهمنى إلهى حقدا آخر لمجرد مخالفتها

أومأت لها بالموافقة لتبدأ باسترجاع عالمها، تضيع أنفاسى لمثل هؤلاء. وكما توقعت كانت شديدة البؤس بما جلبته لها من إفضاح

الكراهية. تصنعتْ كذبا شفاء زائفا وبصيرة عوراء. ابتسمت وقالت إنها فى حالة تحسن بعد استرجاع أزمان ماضية وأنها لربما تسمع لنصحى يوما، اعتدلت جلستها متفحصة منزلى وحميمى بعينيها وحينها أبصرت بهما رغبة.

***

- جان يجب عليك أن تتجنب مثل تلك الأحاديث.

ولم أتجنب الخير وأرضى بالرذائل؟

- رذائل. هكذا ترانى. وما الذى يجعلك تستلذ طالما تكره؟

- هذا عمل الشرير

لم أتوقع أن يكون حديثها بهذا الخبث، بدت ذكية حين تنهدت لجان مبدية رغبتها من التحرر من المادة وشرها هى فى الحقيقة من بث الشر من جديد لجان، ولومضة صغيرة أخافتنى غيرتها فاستطاعت أن تبث ما بها من أحقاد على منزلى الهادئ، قررت بعدها أن أبدأ علاجى لجان من جديد، أن أعود إلى كونه هاربا ليس من أنجاس الديوان بل من الحياة بأسرها، سأزيد من الحب لأنتشله إلى الفرحة هكذا قرر إلهى معى المسير

العودة إلى عملى المبارك يمسح عنى تلك السخافات، أيها المقدس الدانى إلى سترسل لى جديدا فى عالمى الجديد جديدا قررته أنا لأسعد به مهما تطلب منى عناء لذة العطاء أحب إلى من سلب العواطف سأعطيه المزيد ليستلذ أكثر فتعود أرواحه إليه.

كنت شديدة الرجاء حين أخذتنى حالتى من إحدى جلسات العلاج وسط الشموع وموسيقى العصافير والعطور الزيتية المنتشرة حولى، انتهيت من الجلسة ولم تنته قرارتى فى عودة جان إلى عالمى، كانت جليستى إحدى جاراتى المقربات وبدت غير عابئة بالجلسة، سألتها هل أحست براحة؟ إلا أنها أجابت بأن الخوف لا يتركها، وأنها تريد أن تعرف كيف أستطيع أنا العاقلة الاستمرار فى علاج ذلك المستهزئ بها؟

أنكرت عليها كلامها موضحة لها أننى أعرف بالضبط ما أستطيع فعله، وأن جان شخص طيب وأنا أحبه، زادت تحديقا

- تحبين من يفضح جنونكما؟

- جنون!!!! ماذا تقصدين؟

- سمعت فتاتى رفيقك هذا اليوم يريد خلاص التحرر

كاد الجنون حقا يلتف حول عنقى، بشكل سريع وبلهجة لى لم أعهدها طلبت منها الحكاية بالتفصيل

- أبلغ جان أحد أصدقائه أنه سأم ذلك الخبيث الماكر، وأن لا سبيل لديه سوى التحرر من جسده، وأنه هنا فى ذلك البيت المتعطش أهله إلى التحرر يرقب وصول أعضاء الديوان إليه.

هل أراد لى _أنا أيضا ذلك _الموت! هل أحبنى ليأخذنى معه إلى عالمه، أم هى كراهية أن أحيا أنا سعادة بينما هو وحيد مع مجهوله الجديد، ها هو جان يعلن جنونه ويحكم به على، تركتنى جارتى مع دهشتى وعيونى الزائغة، مرت ساعات دون حركة واحدة منى، دون حتى أن أغلق باب بيتى.

لم يعد جان. تأخر أكثر من المعتاد، لربما آثر أن يسلم نفسه بمفرده الليل وقتامته يتسربان إلى بيتي يعبثان بداخلي شجون وتتسرب داخلي الوحدة حيث تهجرني حكمتي، هل هذا ما اختاره المقدس لي؟ هل سأحيا مع جان حياة جديدة أخرى؟ هل سأسعد؟ ماذا عن أحلامي التي لم أكملها هنا بعد؟

قطعت جارتي سكوني حين جاءت مسرعة تنظر خلفها لا أكاد أفهم ما تقول من التفافها وخفوت صوتها مع سرعته، حاولت استيعاب بعض كلماتها

لم يعثروا على جان، صديقه الذي أبلغ عنه قال إنه هرب لكنهم سيحاكمونك أنت، هو أرشد عنك ليتركوه يهرب أعضاء الديوان يسألون أين الساحرة لارا؟ لابد أن ترحلي.

وتركتني، لم أصدق ولم يكن لدي وقت لأفكر، لا أعرف كيف وجدت نفسي خارج البيت تحمل يدي بعض الأشياء لا أعرف ما هي، ولا كيف ساقتني قدماي إلى خارج ذلك الكابوس الذي بدأ باستلامي خطاب أوصلته جارتي لي قبل الهروب بلحظات من صديقتي سيمون

عزيزتي لارا

إن كان في يدك الخطاب الآن فهذا يعني أني مت من عدة ساعات، لم أرد أن أترك أي ذكرى في هذا العالم سوى خطاب صغير لك أخاطب فيه نفسي التي لم يرها أحد سواك، يقولون إن

التعذيب قادر على فعل الأعاجيب، ولكن ما لا يدركونه أن بعد مدة لا تعود بداخلك حياة حتى تستطيع أن تتغير، لا أريدك أن تتصورى أنى بائسة الآن أبكى فى انتظار تنفيذ قرارى بإنهاء حياتى، فلم تعد حياة لأنهيها إنه وجود خاوٍ كأنك تحملين جسدا يتحرك ولكنه فارغ تماما منك، هل مررت من قبل بهذا الشعور يا لارا؟ لا داع من إطالة هذا العبث، سامحينى الآن لا أصدق أن ثمة حيوات أخرى بأى شكل، فربما لا يوجد سوى عدم بصورة ما، ولكنى لم أعد مهتمة بذلك على أية حال.

لا أعرف كم من الوقت مر منذ بداية القبض على والبدء فى تعذيبى، ولكنى سمعت أحد المحققين من رجال محكمة التفتيش يخبرنى أنى على وضعى هذا منذ شهرين، ربما فقدت الإحساس بالوقت أو علمت أن الوقت خدعة، صدقينى كل مظاهر الحياة حتى الزمن ليست حقيقية، نحن كذلك لسنا حقيقة ثابتة، بعض الأفعال تحطم هذا الوهم وتتركك فى عدم الخواء لا عقل ولا روح ولا رغبة، فى البداية كنت أتألم للغاية وأقاوم حتى المنتهى، وبعد بدأت الحياة تنسحب تدريجيا، خروجها لم يكن مؤلما ولا مريحا لم يعد هناك شعور فقط عدم.

ربما لن أنجح فى إرسال ذلك الخطاب لك، ولكنى لم أعد أبال على أية حال، بعد مرور كل ذلك الخداع شعرت بأنك أفضل خدعة مررت بها ذكريات الأيام الأخيرة معك هى الوحيدة التى مازالت تهفو على ذاكرتى.

أذكر يوم أن هجم رجال الديوان على منزلى وقبضوا على بتهمة السحر والشعوذة والهرطقة، عرفت بعدها أن إحدى النساء التى قد قمت بمساعدتها للتخلص من برودها الجنسى مع زوجها وشت بى، بعد أن شعرت بالندم، العجيب أن علاقتها الجنسية بزوجها الباردة قد تغيرت طبقا لكلماتها فقد رأتنى وقت القبض على قالت أن هذا التغير هو عين ما جعلها تشعر بالندم على استخدام السحر فوشت بى إلى رجال الديوان. سمعت بعدها أنها قبضت مبلغا صغيرا من الذهب مقابل تلك الوشاية، لم أمارس معها سحرا كما تعرفين، تلك الأفعال الصغيرة التى تبدو بلا قيمة هى عين السحر والشفاء، الإيمان بها وتكرارها هو ما يثبت مفعولها، السحر هو الإيمان.

قاعة التعذيب عفنة ورطبة جدرانها سوداء، وقد ثبتت فيه مسامير ناتئة قد صدئت، يغلق عليها باب من الحديد السميك، وفى أرضها سلاسل ضخمة مشدودة إلى حلقات فى الأرض، تلك السلاسل لربطنا أثناء فترات التعذيب، وفى الجوار توجد مجالد من الجلد المعقود على رصاص، ودواليب وسحابات ذات مسامير صدئة حادة، هناك أيضا كلاليب ذات رءوس حادة لسحب أثداء النساء من الصدور، ومن المفترض أنى إن لم أنجح فى إنهاء حياتى الليلة فسأمر بتلك الكلاليب غدا، هناك أيضا سلاسل ضخمة وأثقال حديدية معلقة فى نواح مختلفة من السقف؛ ليربط فيها السجين وتتجاذبه من أماكن مختلفة فتتمزق أعضاؤه تمزيقا من جهات عديدة، مات بالأمس أحد المسجونين بتلك الطريقة، هم حتى لا يجيدون

التعذيب فلم يستطيعوا حسبان درجة احتمال الإنسان قبل الموت فمات دون إرداتهم، أرض تلك القاعة المنزوية فى أحد المخابئ تحت أرض الكنيسة من خشب قديم قد هرأ ونخره السوس؛ فتصاعدت منه رائحة كريهة لا شيء يميز وجودك غير استمرار القدرة على شمها

أثناء التعذيب يجلس كثير من الرهبان إلى جوار رئيس المحكمة الذى يشرف على التعذيب، أحد الرهبان يحمل دوما صورة للمسيح ويأمرنا بالنظر إليها طوال فترة التعذيب، أحيانا كان يوجد طبيب حاضر يعمل على إفاقة أى معذب فقد وعيه حتى يستطيعوا مواصلة التعذيب

لا أذكر الكثير من كلمات هؤلاء الرهبان فقد كنت فى البداية منشغلة طوال الوقت بالألم، ولكننى أذكر القليل لأتسلى به

- اعلمى يا بنيتى أننا لا نرمى من وراء تعذيبك إلا إلى الإقرار عن بقية أهلك الذين تحبينهم، وبذا تنجين نفسك وتنجين نفوسهم ونصعد بكم إلى السماء

لارا على الرغم من أنى أعرف الآن أن الحياة أكذوبة كبرى، وأنه عند لحظة ما ستدركين توقف الزمن إلى الأبد وتشعرين بخواء مفزع وستموت عندها كل الأفكار والمشاعر؛ إلا أن لحظات الخداع التى قضيتها معك هى الأفضل، وهذا ما أردت شكرك عليه، لا أعرف هل من المفترض أو من الأفضل أن نساعد الآخرين على معرفة حقيقة الخواء، أم نزيد من أوهامهم فربما يسعدون مدة إضافية؟ فى

النهاية سيذهب كل شيء في طيات العدم، ولكن قوة اللذة التي شعرت بها في أيامي معك مازالت تحاصرني. ربما هي الوحيدة التي تحمل وقعا حقيقيا على لم يذهب كاملا مع التعذيب أردت الكتابة لك قبل أن أنسى أيضا لحظاتنا الأخيرة معا وأشكرك ولكن فكرى مرة أخرى قبل أن تواصلي تعليم الناس حب الحياة، فذلك يعني حب الخواء، وربما يزد هذا من ألمهم عند اللحظة الفارقة، أجساد بلا أرواح هذا هو حالنا في تلك اللحظة فلا تزيدى من ألمهم يا لارا

الليلة الماضية وسط الصمت المطبق والظلام الحالك صارحني أحد الحراس أنه سأم كل ذلك وأنه سيهرب غدا إلى أي مكان خارج ذلك الجحيم، عن طريقه وصل لك خطابي، إذا وصل إليك فاعلمي أني قد أنهيت ذلك الوجود العبثي الكاذب وأني رفضت بآخر قوة أملكها أن أستمر في ذلك الخواء

سأكف عن الوهم والعقل والإيمان والإلحاد والحب والكراهية والحياة والموت، فقد أنهيت هذا كله قبل أن انتهي أنا، ولذلك حان وقت الرحيل إلى لا مكان ولا زمن ولا حياة ولا موت

سيمون

ديسمبر ١٢٣٥

حتى الآن لم أدرك من أنا؟!

أسير وحدي في الطريق مستشعرة الخلاء والوحشة، شلالات

المياه تحمل الموت كما الحياة، والقتل قابع فى انتظار الظلام، وأنا كما أنا لا أدرك شيئا

قرأت الخطاب فى البداية وبدوت متماسكة ثم علمت بخيانة جان وهربت فى اللحظة الأخيرة. ما أشد تماسكى!! كم كنت واهمة؟ أكاد أضحك من السخرية ولكن لا طاقة لى بالضحك

انسلت منى الحياة تدريجيا حتى أتت تلك اللحظة وعرفت أنى لا أحمل سوى الموت. الهدوء والخواء يخبرانى بالموت، أنا من عشقت الحياة عرفت أنى كنت واهمة وأن الموت أقوى من الحياة. الآن لا ألم ولا ضحك لا طاقة لى بشىء، أدرك انفصال الروح وهروبها، أرى جسدى يتغذى وينام يسير واهما الحياة بينما أنا ميتة، هل يمكن أن تكون الروح قد فارقتنى وذهبت بعيدا حيث من يستحق الحياة بها؟ أم أنها ماتت وشبعت ظلاما بينما أتوهم مواصلة الحياة بها؟

وقفت عدة مرات على سفوح مناطق مرتفعة دون أن أملك القوة اللازمة لتنفيذ القرار، جان ذهب بعيدا عن ذهنى منذ يومين تقريبا ولم يبق سوى طيف غريب لا أعرفه يسير بالقرب منى الشياطين انطلقت فرحة تعبث بى فى جنون الليل

أسير فى قافلة دبرها أحد المهربين فى اللحظة الأخيرة؛ لأنجو قبل القبض على بعد خيانة جان، عبرت معهم الحدود مقابل آخر قطع ذهبية بقيت، أراهم يتلوون أمام الذهب ولعابهم يسيل، بينما أنا لا أتعجب ولا أشعر

الطريق إلى إسبانيا وسط هذا الجمع مزعج، لم أكن لأحادث أحدا ولا لأبدأ حديثا، اكتسبت عداء الكثير بسهولة؛ فما إن تنعزل حتى يكرهك الجميع. الجميع متورطون وعلى كل واحد توريط البقية ليظل وحده فى وهم العيش لا تتوقف حلقة الجنون قبل أن تفرغ نفسها من أى مضمون. هكذا يجن الجميع

أمسكت بيده تنسل داخل أمتعتى تفتش عن الذهب الباقى قبل بزوغ الفجر، تركته يعبث قليلا بينما أتظاهر بالنوم، بمكر أخرجت ذلك الخنجر الصغير الذى أخبئه منذ بداية الرحلة فى حزامى؛ لأمسك بيده فجأة وأهمس فى أذنه

- أستطيع الآن قطع أصابعك

جمدته المفاجأة وظللت أضغط على يده بقوة والخنجر يلامس أحد أصابعه حتى شممت رائحة كريهة، تركته يهرب بعد أن تبول من فرط خوفه، شعرت وقتها بالحنق يملأنى حتى المنتهى. وددت لو أقتل الجميع وأقتل الحياة نفسها، حدقت فى تلك العملات القليلة المتبقية معى ونظرت إلى الجميع فى احتقار شديد، كانوا نائمين يشبهون الموتى فى كل شىء، وددت لو لم يستيقظوا أبدا، كل حكمة مزعومة تسقط اليوم أمام عينى عندما أرى الحقيقة الزائفة فقط الحقيقة كما هى

رغبة عارمة تجتاحنى الآن للتحرر من سيطرة الحياة على روحى. حياتى أشبه بأفكار كالعنكبوت تسيطر على ضحيتها حتى تجد الضحية نفسها مرتدية الخيوط لتقتلها متلذذة. ربما كان الخوف

دافعى للإيمان. كم من دوافع واعية ولا واعية قادتنى إلى الإيمان وأحاطنى بالخيوط ليكتمل موتى؟ الخيوط تثقلنى وتشل أذرعى وأزمانى، هل فى إمكانى الانفلات الآن؟! الانفلات منى

***

فى تلك الليلة نهضت فى الموعد المحدد

لملمت حاجاتى وسرت وسط أكوام النائمين فى مخيمنا الصغير، كان قد بقى على دخول الأراضى الإسبانية القليل، اضطررنا مرارا سلك طرق وعرة خطيرة لاشتعال الحروب بين المسيحيين والمسلمين سيذهبون إلى قشتالة أول من تحررت من سلطان العرب والمسلمين لتعود مرة أخرى مملكة مسيحية، أنا وحدى قررت أن أفعلها أن أذهب إلى تلك البقعة الأخيرة من الأرض. إلى غرناطة!

لم يكن أحد يعرف وجهتى فى ذلك الجمع سوى امرأة واحدة، جلست معى ليلة وسألتنى لماذا أريد أن أنهى حياتى؟ لم أجب؛ فسألتنى عن وجهتى، أخبرتها غرناطة، حدقت فى قليلا ونصحتنى

- لا تخبرى أحدا؛ فلا أحد يعلم العواقب، كراهية عميقة الآن فى الصدور بين المسيحيين والمسلمين وأنا أرى بعينى العبث ليس ثمة مسيحيين ومسلمين. يوجد فقط أناس يلهون قليلا على امتداد الحافة قبل السقوط، معتنقين أوهام صورتها نفوسهم الضعيفة يسندون بها أنفسهم ليتعزوا قليلا قبل الموت!

سمعت صوت أحدهم يضاجع امرأة بالقرب من إحدى الخيام فى الظلام، وعرفت من صوت كلماته القليلة أنه هو نفسه ذلك اللص

المتبول خوفا ، شعرت باشمئزاز شديد حتى كدت أتقيأ ومشيت

أخبرتنى تلك المرأة كيف أصل إلى غرناطة . الغابات التى لم يسلكها أحد سوى الهالكين . حدثتنى عن غابات الأساطير لم ينج من هلاكها سوى رجل خارق ، ولكن ربما هى الطريق لغرناطة أكملت طريقى فى الظلام أقامر القدر بحياتى والنجاة أو استمرار مأساتى وإعلان نهايتى فى غابات الهلاك .

نسيت كل الوجوه حتى وجهى . قررت الإنهاء أو الانتهاء ، لم أعد للخوف ولم تعد طمأنينة ، سرت لا أرى شيئا أصطدم بأجسام لا أراها ، أشجار ومئات الأصوات ليلا ونهارا ، كعهدى بالغابات إما الموت أو النجاة ولا أمل فى شىء فقط السير للمصير ، اقترب منى شيئا يطير أحسست شبح الموت ، استلقيت بجسمى ممدة على الأرض بينما أشعر ببعض اللزوجة من تحتى وأغمضت عينى وقبل النوم أو الموت تذكرت الزمن البعيد تذكرتنى طفلة !

ها أنا أركض فى الزمان البعيد طفلة لا تعرف قدرا ولا مصيرا

ابتعدت عن أمى دون أن تدرى ، أراها تعد الطعام فى انتظار عودة أبى فألهو بمفردى وسط الأشجار والنباتات القريبة ، بيتا صغيرا على مشارف الغابة هو جنتى ، حدثنى أبى وأمى عن الجنة كثيرا وفى كل مرة لم أكن أرى سوى حدود بيتنا الصغير

ابتعدت دون أن تدرى أمى فى اتجاه الغابة، توقفت عند بدايتها والتفت إلى الخلف فلم أر أمى، حسنا ما من أحد الآن يستطيع إيقافى، وجولة صغيرة لن يدرى بها أحد لا بأس بها، دخلت الغابة، هالنى فى البداية منظر الأشجار الملتفة الكثيفة حتى حجبت ضوء الشمس، هناك طائر غريب الشكل يقف الآن على مبعدة أمتار منى، سر قلبى برؤيته واقتربت منه فلم يطر كما توقعت، اقتربت يدى منه ففتح منقاره وأطلق صوتا غريبا واستقر كما هو، وظلت يدى الصغيرة تلمس جسمه وهو ساكن الحركة يطلق صوتا أحسست أنه صوت طمأنينة وفرحة فأسعدنى، تركنى فاقتحمت الغابة أكثر وفى كل مرة كنت أنظر خلفى وأرى المنظر متشابه؛ فأحسب أننى مكانى ولا تزال العودة سهلة.

بعد مرور وقت لا أحسبه جلست منهكة على الأرض من فرط المشى، تحدثت مع كافة الأشجار والنباتات والطيور قصصت لهم عن بيتى الصغير، وأبى وأمى اللذين يمنعانى من القدوم لهم، وسألتهم كثيرا عن سبب هذا فلم يجيبونى بشأن الأمر الأخير لكننا كنا كلنا فى فرحة عظيمة، حتى الأشجار تكلمت وسمعت صوتها جيدا، عرفت منها قديم السن والشاب، ودعتهم عندما مر وقت طويل ووعدتهم بالعودة مرة أخرى حينما يتيسر الوقت، درت للخلف وبدأت طريق العودة.

بدأ الخوف يتسلل إلى قلبى، حين عرفت أنى خُدعت وأن الغابة ملتفة ومتشابهة حتى أننى لم أعرف الطريق الآن، بعد مرور وقت

طويل من السير دون أمل فى إيجاد الطريق بدأت أسخط بسبب خداع الغابة. أخبرت جميع من رأيتهم فى الطريق من أشجار وطيور أنى لن آتى مرة أخرى، وأنى الآن عرفت سبب منع أبى وأمى وكراهيتهما لهم جميعا، بدأت فى البكاء وواصلت السير دون جدوى حتى جلست فى مكانى من التعب مرة أخرى، وبدأت ألحظ أن الظلام سيأتى قريبا، تملك الخوف قلبى وانهمرت دموعى حتى بح صوتى ولم أعد قادرة على البكاء

حينها رأيت ظلا من بعيد يقترب منى وعلى كتفه بندقية، فرح قلبى وركضت تجاهه لينقذنى، فى طريقى إليه كانت ملامح وجهه تتضح أكثر فأكثر، ذو لحية كثيفة غير مهذبة. كل ملابسه فى حالة رثة ويمسك بزجاجة فى اليد الأخرى، رآنى فتوقف سيره وقبل كلمة منه أخبرته أنى تائهة وأنى أريد أن أعود إلى المنزل ، لم يجب وأمسك بى وانطلقنا صامتين، كانت يده خشنة شديدة الصلابة على يدى وكأنه قيد،

وصلنا إلى إحدى الأشجار؛ فحدقت فيه سائلة

وصلنا؟

ترك بندقيته بجانبه، وألقى بزجاجته بعد أن فرغت تماما، امتدت يده وبلحظة خاطفة قطع فستانى بالكامل، بدأ فى خلع بنطاله لينطلق صراخى على أشده، لم أستطع الحركة؛ فيده الأخرى تقيدنى صلابتها وخشونتها، لم أفهم تماما وقتها ما يفعله ولكنى أدركت أنه يفعل شيئا مخيفا، هذا كل ما أدركته، برز شيء ضخم قبيح من تحت بنطاله

وأمرنى أن أقترب منه، ارتجف جسدى ارتجافة عنيفة وأغمضت عينى وسمعت صوتين متلاحقين فى لحظة واحدة ثم سكون تام.

فتحت عينى فوجدت حجرا ضخما راقدا على البندقية والرجل أرضا بلا حركة تنهمر الدماء من كتفه، ركضت محتضنة فستانى ولا أدر كيف وجدتنى أخرج من الغابة، وأدخل البيت والظلمة بدأت تخيم، كانت أمى واقفة على باب المنزل تبكى حين تأكدت أن اللاهثة إليها هى أنا، وانهمرنا باكيتين.

أخبرتها وسط بكائى بما حدث سريعا، فظلت تصرخ

- إنه ملاكك الحارس. ملاكك الحارس.

دخلت المنزل وقضيت الليلة كلها فى أحضان أمى وأبى الذى قضى ساعات طويلة فى البحث عنى، ثم ساعات أخرى مع بقية الرجال فى البحث عن جسد ذلك السكير حتى وجدوه مازال على قيد الحياة، عرفوا بعدها أن حجرا سقط من أعلى الشجرة على بندقيته المتهالكة فأطلقت رصاصة اخترقت كتفه، ولكنه فقد وعيه من فرط سكره، قاموا بتضميد جرحه ونقلوه إلى المستشفى ليظل تحت الحراسة بعد أن تم الإبلاغ عنه والقبض عليه.

وأنا فى أحضانهم تمتمتُ بتلك الكلمات بصوت خفيض

- نم نم أيها الطفل السعيد كل الخليقة نامت وابتسمت أنت فى أحضان أمك، وملاكك الحارس واقف بالقرب نم فأنت مبارك ومحبوب.

***

لا أدرك ماهية مشاعرى، أو متى حدث أو كيف تم هذا، وجدت نفسى أخرج من الغابة، تلك الليلة تذكرت ما حدث لى وأنا طفلة عندما تهت فى الغابة، وتذكرت معجزتى الأولى لأستيقظ مرة أخرى بعد مرور أعوام من ظلام الغابة أيضا نحو المجهول، حاولت التقاط أنفاسى قليلا واستجماع شتات أفكارى. نعم لقد نهضت فى الصباح ووجدتنى حية، بينما أنا لا أصدق أنى فى نفس العالم، شعرت برغبة شديدة فى البكاء أقاومها، فما إن أبك حتى أعلن عودتى للحياة. زارتنى كل الوجوه وأذكر صدى فحيح أفعى مرت بالقرب منى، وربما بعض القوارض استقرت على بطنى بعض الوقت لا أدرى أكان هذا حلما أم حدث بالفعل أحدق فى جسدى وأتلمسه أيمكن أن يكون الحلم بهذا التجسيد؟ نظرت خلفى فإذا غاباتى خلفى أركض صغيرة وشابة ومهرطقة إلى جسدى جى بروحه المعجزة ها أنا ها أنا من جديد أفوز بمقامرتى

لمحت طريق شبه ممهد، حاولت الهبوط بحذر حتى لمحت ووقفت فى منتصف طريق لا أصدق عينى، جاءتنى تلك الرغبة مرة أخرى فى الركض، وكأن جسدى المنتصر يدفعنى لأركض رغم إنهاكى وتقطع أنفاسى. ركضت مدة غير معلومة حتى لمحت من بعيد وفى الجهة المقابلة عربة تجرها أربعة جياد لم أصدق عينى. ناديت وهتفت بكل قوتى بينما أواصل الركض تجاه العربة، ولم أصدق مرة أخرى عندما توقفت العربة مرة واحدة واستجابت لندائى بوجه يطل من نافذتها الصغيرة!

للحظات عاودنى السحر، ها هو المقدس يستجيب وطاقتى بالإيمان بى تتجدد، اقتربت لاهثة لتبدأ ملامح الوجه تتضح رويدا رويدا، إنه وجه امرأة ! امرأة للنجاة مرة أخرى.

نظرت إلى مليا من رأسى حتى قدمى وسألتنى

- من فعل بك هذا؟

أجبتها

- القدر

للحظات صمتت ثم طلبت منى الصعود إلى العربة، نظر الحوذى إليها فى تشكك، ثم عاد بنظره إلى الأمام وتحرك، جلست داخل العربة الأنيقة لتقع عينى على صندوق أنيق مغلق يبدو عليه الفخامة.

- اطمئنى. هذا ليس ذهبا

نظرت إليها فى دهشة، وأخبرتها أنى لا أنوى سرقتها، فقهقهت بصوت عال ولم ينظر إلينا الحوذى الذى يبدو أنه تعود على غرابة أطوار سيدته، وأكملت هى ضاحكة

- لست خائفة منك، فلو رأيت نفسك الآن لعرفت أنه ليس بإمكان أحد أن يخاف منك، ولكنى كنت أطمئنك لأننا نسير الآن فى طريق لم يعد آمنا خاصة فى صحبة صندوق مثل هذا، إن صادفنا أحد من قطاع الطرق فى تلك الأيام الرهيبة فآخر ما سيهتم به صندوق يحوى بعض الكتب... سيحاول الاهتمام بنا نحن، وربما

بى وحدى فأنت الآن تحملين مظهرا غير مشجع، حاولى أن تغمضى عينك قليلا وسنعاود الحديث فيما بعد

لم أفهم كلامها بوضوح، ووجدت نفسى فى نوم عميق لا أعرف كم استمر رغم حركة العربة، فتحت عينى بعد تلك المدة غير المعلومة لأتفحص كل شىء من حولى، تبدو امرأة فى الأربعينيات ما زالت تحافظ على تأنقها، ملابسها تنم عن تحدرها من أصول عريقة.

ألا تعلمين شيئا عما يحدث؟ ألا تعلمين عن الحرب الدائرة الآن؟ يبدو أنك من عالم آخر من أين أنت؟ لكنتك غريبة بعض الشىء

أخبرتها أنى من تولوز فى أرض الجنوب الفرنسى؛ فحدقت فى بدهشة كبيرة وأخبرتنى

- أنتم أيضا تملكون حربا أخرى، إلام وصل بكم الأمر مع جويلم دى أرنود كاهن الديوان المدعو مقدسا؟ لقد وصلتنى أخبار عما يحدث

ازدادت دهشتى وبدأت فى فقدان التركيز ولم أعد قادرة على فهم أى شىء، أومأت لها موافقة، فمضت فى الحديث

- اسمى تريزا من قرطبة كما يسميها العرب، بقيت هناك مثل عائلتى حتى بعد سقوطها فى أيدى المسلمين، نحن بالطبع من القلائل الذين استطاعوا العيش فى ظروف جيدة للغاية؛ فوالدى كان يشرف على حركة الترجمة فى قصور خلفاء المسلمين، تغيرت الأوضاع من جديد لتشتعل حروبا بين المسلمين والإسبان وتبارك

الكنيسة عودة قرطبة مرة أخرى إلى أيديهم، اختطفت فى تلك الظروف ما استطعت من كنوز العلماء وكتبتها بالإسبانية والعربية وقررت الذهاب بها إلى غرناطة. لتصبح إلى حين انتهاء الحرب فى مأمن عن وحشية الحمقى منهم.

حدقتُ فيها مبهورة من جرأتها، سيدة تسافر بمفردها مع حوذى تجاه أراض غائرة لإنقاذ تلك الكتب! لربما هى كذلك تحمل داخلها مقدسا!

تناسيت ولم أجبها لأقص لها شيئا عن نفسى، وهى لم تطلب منى مرة أخرى، ولكن الرحلة امتدت امتدت طويلا

بعد مرور أربعة أيام على سفرنا كنت قد اعتدت على وجودها وصرت أشعر بالاطمئنان لها، كنا نقضى النهار فى السفر، وفى الليل نخيم ثلاثتنا ومعنا بعض الأطعمة جلبتها لنا مهارة الحوذى الذى كان مدربا على جمع بعض الأطعمة من الغابة التى تحاذى طريقنا

قبل أن ننام تلك الليلة وبينما نحن نستدفئ على بعض النيران، أخبرتنى أن ألبرتو - الحوذى - هو ما تبقى لها من أسرتها، مات أبوها ولحقته أمها بعد شهور بسيطة فى ميتة طبيعية كريمة، وهى لا تملك أقاربا سوى ذلك الحوذى الذى ظل مقيما معهم طوال الوقت فى قرطبة حتى صار أشبه بملاكها الحارس على حد تعبيرها، لم ينظر إلينا ألبرتو حتى عندما سمع اسمه وبدأ فى النوم فى مكانه القريب منا، وبدأت أفتح أنا فمى أخيرا

***

وكأنى أستمع لصوت أحدهم حينما قصصت كل شيء

طرت بجسدى لأرانى أقص لتريزا كل ما حدث، أشاهدنى وأرقب ملامحى فى الحكى، أكتشف ما لم أكن لأسمعه إلا منى وأدهش لما لم أكن لأخبر به أحدا سواى.

بدأت أطرافى فى الارتعاش وبقدر الألم انبعثت لذة غريبة فى جسمى كله جعلتنى أواصل لم أفق من نفسى إلا عندما داعب ضوء الشمس عينى؛ فعرفت أنى قضيت الليل كله فى التحدث، نهض ألبرتو من مكانه ليبدأ فى إطعام جواده والاستعداد لمواصلة السفر، تريزا كما هى تحدق فى وجهى فى صمت تام طوال تلك المدة، بح صوتى من كثرة الحديث وشعرت فجأة بالهزال، أمسكت بى تريزا وقادتنى إلى العربة وأسندت رأسى على ساقيها بينما رحل ألبرتو ورحلت أنا إلى نوم طويل

حينما أفقت وجدت تريزا تعدل من هندامها وتخرج بعض الأوراق، تنظر إلى مبتسمة وتقول

شارفنا على حدود غرناطة يا عزيزتى، سيسألوننا بعض الأسئلة فلا تجيبى بشيء واتركى لى مهمة التحدث، حين نتجاوز البوابات سأذهب إلى أحد أقارب أبى ليعد منزلا صغيرا لى، وبالطبع يمكنك الإقامة معى إن أردت أو الانطلاق، فقط أريد أن أخبرك أنك انبعثتى من جديد بعد حديثك الأخير، ربما لم أشهد أحدا من قبل يستطيع التكلم عن نفسه بتلك الكلمات، أؤمن أن قوة ما ساندتك حتى تستطيعى مواصلة ذلك الاعتراف، لقد كان بمثابة انبعاثًا لك مرة أخرى.

لم أجب بشيء وكأني أخرج من قبر مظلم إلى نور لم أعتاده من قبل صمت بينما وصلنا إلى بوابات المدينة وتكلمت هي قليلا مع الحراس الذين سمحوا لها بالدخول بعد أن اطلعوا على رسالة ما كانت في يدها، يبدو أنها كانت قد أعدت لتلك الرحلة منذ زمن طويل، أستطيع بالطبع فهم اللغة الإسبانية فهي قريبة جدا من لهجتنا في تولوز، ولكن عند حديثي يستطيع أي إسباني اكتشاف غرابة لهجتي فورا، ما يزعجني أني لا أعرف من لغة العرب سوى أقل القليل

سارت العربة بنا مدة بسيطة في المدينة، كنت أراها للمرة الأولى وكنت مشدودة لمناظرها الجميلة وغرابة عمارة هؤلاء المسلمين بزخارفهم الكثيرة، وصلنا إلى المنزل، واستقبلنا قريب تريزا بكل ترحاب ولم يسأل ولو سؤالا واحدا عني، استرحنا قليلا وتناولنا بعض الطعام معه حتى أخذنا إلى موقع البيت الذي أعده لتريزا، كان المنظر بديعا بتلك الحديقة الجميلة المليئة بالأشجار والنباتات الجميلة في سفح المنزل الواقع على هضبة صغيرة

شيء ما في داخلي ألح علي بالانصراف، أخبرت تريزا التي لم تتعجب من قراراتي الغريبة بقرار انصرافي، أخبرتني باسم المنطقة حتى أستطيع الوصول مرة أخرى إليها في أي وقت، حاولت تزويدي ببعض المتاع، ولكني أخبرتها أني لا أريد حمل أي شيء يكفيني نفسي، انصرفت من جديد إلى مجهول لا أعلمه دون مهابة الذهاب.

أنا الآن فى فراغ.

لا أفكر فى شىء وأغمض عينى كثيرا أثناء السير، فلا تأخذنى حتى مناظر المدينة الجديدة ولا كثرة مزارع الموز أو القناطر والجسور المائية المتعددة، أسير فقط شاعرة أنى أسير بداخلى، ربما ينظرون إلى تلك المرأة المغمضة العين أثناء سيرها فى غرابة، وما الغرابة فى ذلك؟ ألسنا نسير كلنا مغمضى الأعين؟

أحتاج إلى ذلك الفراغ. إلى مساحة واسعة إلى خلاء أمام عينى يوازى خلاء نفسى ظللت أسير مدة طويلة ورميت من ذهنى عنوان صديقتى. فلا أود العودة. أود المضى نحو الخلاء

بعد سير طويل وجدت الجموع تقل والأرض تبدأ فى الارتفاع ومزارع الموز كثيرة كما هى ظللت أصعد حتى أصبحت على ربوة عالية، وهناك بدأت الجموع تظهر من جديد الأعداد تزداد بشكل غريب لم تمض دقائق حتى وجدت أحدهم فى المنتصف على أعلى نقطة، يتكلم وسط الأنظار المنصته إليه كالمسحورة، أنصت فلا أفهم شيئا من عربيته الغريبة عنى. فقط فهمت بعض الكلمات المتفرقة التى كنت أحفظها من أبى. ورغم ذلك لم أمنع أذنى من الإنصات ولم أمنع عينى من التحديق.

بعد دقائق بدأت أرتجف وأغمضت عينى أنتظر تلك اللحظات كما انتظرتها وأنا طفلة، بينما ذلك الرجل يجذبنى نحوه أسفل شجرة الجميز الكبيرة، فتحت عينى فإذا الرجل أنهى كلماته والجميع صامتين بينما دموعى تنهمر

بدأ الغالبية فى الانصراف، بعد مدة لا أعلمها نظر إلى ومن خلفه كان بقية قليلة متبقية - يبدو أنها من رجاله المقربين- كان يبدو واعظا، لم أدر ماذا حدث. فقط وجدتنى أعود إلى تلك الذكرى القديمة .لا لم أعد لها، إنما كنت فيها مرة أخرى.

اقترب منى ومن خلفه أتباعه ثم قال شيئا بالعربية فلم أفهمه، فنطقت كلمة واحدة بالإسبانية التى تشبه لهجتنا فى أرض الجنوب فى تولوز فأومأ إلى برأسه وأجابنى بالإسبانية

- مرحبا أستطيع التكلم بالإسبانية جيدا

أومأت له وظللت صامتة، فسألنى عن سبب بكائى؛ فأجبته

- لا شيء فقط ذكرى بعيدة، بعض كلمات أغنية قديمة ترن فى ذهنى مرة أخرى.

- عن أى شيء تحكى كلماتك؟

- عن ملاك أنقذ فتاة صغيرة.

حدق فى وجهى قليلا ثم بدأ فى الإنشاد

نم نم أيها الطفل السعيد كل الخليقة نامت وابتسمت أنت فى أحضان أمك، وملاكك الحارس واقف بالقرب نم فأنت مبارك ومحبوب.

ظللت أبكى إلى أن سقطت على الأرض فى حالة هيستيرية من الانفعال؛ فتجمع من حولى رجاله فزعين وأنهضونى معه من على الأرض أجلسونى على صخرة مرتفعة....

كيف حدث كل هذا؟ أكان معى وقت الحادث. لقد كنت فى أحضان أمى أنشد تلك الكلمات ولم أكررها أبدا أمام أحد وظللت أرددها فى نفسى محتفظة بها كسر عميق لا يعرف عنه أحد شيئا حتى أمى لم تسمع كلماتى كنت أتمتمها فى حالة إلهام لم تعد لى أبداً منذ الحادث، كنت قد رأيت شيئا أنكرته فيما بعد. رأيت ذلك الملاك، أو اعتقدت ذلك فى الزمن البعيد.

أمسكت يده ونظرت فى عينه وسألته كيف حدث هذا؟، أجابنى دون تردد، أنه كان يشعر بقدومى فوجد نفسه ينطق تلك الكلمات بشكل تلقائى.

- هل تعرفنى؟

- بشكل ما عرفت أن أحدا يحتاج تلك الكلمات الآن، صوت داخلى أخبرنى أنه ربما أنت.

صمت، وصمت كل رفاقه وهم لا يفهمون بالضبط ماذا يحدث، ظل صمتنا طويلا حتى أنهضنى وأخبرنى أن الوقت قد حان للانصراف، فالغروب قد بدأ، وقريبا سيعم الظلام، أومأت له برأسى ونهضت، سألنى عن وجهتى؛ فأخبرته أنى لا أعلم.

- وكأنى كنت أعرف. عرفت من البداية أنك دون مأوى، حسنا أستطيع تدبير إقامة مؤقتة لك

لم أجبه بشىء، وتركت العنان للنهاية، قادنى إلى منزل إحدى النساء، لا أعرف ماذا أخبرها، ولكن اليوم انتهى وأنا فى غرفة

مغلقة على بعد أن مررت بكل صنوف الترحاب العربى، أسندت رأسى فى النهاية على الوسادة ونمت أخيرا نوما عميقا

شعرت بذلك الطرق ففتحت عينى فى الصباح وطردت أشباح جان من ذهنى لأفتح بابى، وجدت المرأة تشير إلى أن أفتح نافذتى، فتحت النافذة فرأيته يشير إلى هو وأتباعه، فأومأت له بابتسامة، تناولت فطورى الفاخر الذى أصرت المرأة أن أتناوله، خرجت تملأنى طاقة جديدة، وجدته فى انتظارى؛ فسرت بجانبه وسألته إلى أين نحن ذاهبون، فنظر إلى وقال

- هذا ما يجب أن تقرريه، فبالنسبة لى عرفت إلى أين أنا ذاهب. أنا فى الطريق

- ولكنى لا أعرف طريق.

- لا أحد يعرفه، فقط علينا تجنب الظلمة ومن ثم يأتى النور مرشدا

- ظننت حياتى نورا، وظننت طريقى حبا رحت أنشره فى كل مكان.

أومأ لى برأسه وأكملنا طريق.

- أريدك أن تنظرى لى جيدا وتخبرينى بما تريدين

- ماذا تظن أنى أريد؟

صمت وأكمل تحديقه بعينيه النافذتين.

- لا أعرف هل أريد أن أحيا أم أن أموت؟!

- ربما الطريق واحد.

أردت سماعه، ولم أرد سماعه إن كان واعظًا، لقد اكتفيت فى حياتى تماما من الكلمات، الكل يتكلم وما من مصغ، صارت الكلمات تحجب ما بيننا وبين المقدس، كلما نتكلم نبتعد إلى ظلام القول. لا أستطيع احتمال الكلمات الآن

- أعلم أنك لا تودين سماع كلماتى الآن، ولكن هل تدركين السبب الحقيقى

لا شك أنه صاحب بصيرة هائلة، ولكن حتى هذا أصبح لا يجدى الآن

- السبب الحقيقى أنك قطعتى كل طريق للوصال فى الوقت الذى ظننتى فيه أنك تقيميه وتهتمى له.

لن تفلح فى جعلى أستمع مرة أخرى. لقد اكتفيت من هذا، ربما فقط لا أملك الشجاعة الكافية لاتخاذ قرار الإنهاء، ولكن يوما ما سأفعلها، وإن لم أفعلها فلن يشفع لى جبنى.

- حسنا لن أتكلم مرة أخرى إلا عندما تطلبين.

نظرت له وفقدت كل إحساسى بالسحر والانفعال اللذين صاحبانى عندما سمعته ينشد نشيدى العابر لن أرهق نفسى بالتفسير الظواهر غير المرئية والمعجزات مللت منها، ولم يعد أى شىء يدل على وجوده. لقد خدعت وخُدعت أعواما طويلة وحان وقت الإفاقة، أرسل لى هديته وأسماها جان، والآن يعبث بى ليخبرنى أن كل تلك الرؤى كانت أوهام. حسنا سأنتهى من هذا، ومن ذلك المعلم الذى يظن أنه قادم لتعليمى.

تركته وأتباعه وانصرفت وحدى فى طريق، لم يلحق بى ولم ينادنى، داخلنى شعور بالوحشة مفزع، وبدأت الذكريات تنهمر مرة أخرى. أغمضت عينى واستندت إلى شجرة واضطربت جدا

دماء جان ودمائى، أطعن تلك السماء الصامتة فتموت ونستمتع قليلا بالقتل، فتحت عينى على أثر تلك الخيالات الدموية وقلبى يخفق بعنف، اللحظات تمر وأدرى أنى مقيدة بخداع لا أستطيع الفكاك منه كيف أتبرأ من كل تلك اللحظات من جمال وكلمات ومعجزات لأعوام عديدة؟ "السبب الحقيقى أنك دمرتى كل طرق الاتصال فى الوقت الذى ظننتى فيه أنك تقيميها وتهتمى بها" عادوتنى كلماته وحدقت فى هدوء أيمكن هذا؟ كيف؟

- نعم، يمكن

وجدته أمامى ينظر إلى فى حنان بتلك النظرة الهادئة التى كانت تزيدنى اشتعالا، أما الحقيقة وجدتها متجلية تلك المرة بوضوح. إنه يريد أن يساعدنى. إنه مرسل إلى، ولكن كيف أثق مرة أخرى فى أمر فقدت فيه ثقتى تماما؟

ها هو واقف أمامى كما هو يحدق فى بحنان ويستمر فى قراءة أفكارى.

حسنا يجب أن تعلم شيئا لا تبهرنى المعجزات الآن، ولم يبق لدى سوى خطوات صغيرة تفصلنى عن مفارقة الحياة، يجيب صوته الهادئ عقلى المتحدث

- حسنا... لست بأعلم بالقلب من خالقه، ولست بهاد الناس

ما دمت أهتدى. لكنى أتوق للصحبة فى الطريق وإن كنت سأصاحب وحدتى أو ألتمس صحبة غريب.

نطقت لأعلم منه المزيد

- وكيف تبدأ الطريق؟ وكيف تكون الصحبة؟

- علينا أن نريد لتكون الصحبة، وعلينا البدء من جديد ولا نريد؛ ليكون الطريق.

حدقت فيه بدهشة، وسألته

- هل تريدنى بعد طول طريقى أن أبدأ من جديد؟! ربما لن أجد ما وجدته فى العمر المنصرم. ربما بداخلى فقط لحظات للعيش لأقرر الموت. الموت بما حواه طريقى وغاباتى.

- وما الخسارة إن أنهيت حياتك بموت أو قررتى بداية الطريق بموت ما دمت لن تتزودى بها؟

ها أنت تعظ من جديد، ها هو صوتك يرتفع كمعلم.

- معاذ الله يا امرأة، كيف لى أن أعلم من أطلب منهم الصحبة للتعلم!!

تنهد بعدها فى اعتذار لنفسه، لتعاود عيناه نظراته إلى بعد صمت طويل، أصبح صوته عميقا للغاية وهو يخبرنى عن معلمه، أخبرنى أنه يقضى أيامه الأخيرة فى بغداد، واسم شهرته ابن عربى، وأنه شديد الشهرة فى بلاد المسلمين، قضى أعواما متمتعا بصحبته ومتعلما منه، ولكن ما يجعله فى اتصال مع الحقيقة بشكل دائم هو شىء واحد فقط..

- ما هو

- أن أظل متحركا غير راتب كما الحقيقة، أن أكون طازجا على الدوام، أن أنتظره فى كل شأن وألا أحده بشيء. أن أنتظر مفاجأتى كل يوم.

- وماذا إن قيدتك الفكرة؟ إن كان هو ملهمك بها أليس عليك التمسك بها وبقداستها؟

- نعم. هو من يعطى للفكرة القداسة والمعنى طالما أراد، له ما أعطى وله ما أخذ، أما نحن فعلينا التسليم بالإرادة إن نزع ما أعطى علينا أن نقبل دوما التحرك من جديد بما أراده لنا

صمت مدة طويلة وهو يداوم النظر إلى فى إشفاق

- وأين ذهب معلمك؟

- طريقه السفر طوال الوقت يرحل فى البلاد يتعلم ويعلم.

ساد الصمت مرة أخرى، مدة ثم قطعته أنا

- لا أدرى كيف عرفت أى شيء عنى، ولكن المعجزات لم تعد تبهرنى. أخبرنى بشيء أبدأه.

- سأخبرك، ولكن تلك المرة سيتوقف الأمر على قرارك

- حسنا ما هو؟

- تعلمى السجود.

***

أشعر بالإذلال.

قلتها لنفسى، وأخبرته بها بعد ذلك. ظللت معه أسبوعين

كاملين لا نفعل شيئا سوى السجود والصمت، كنت أسجد معه على طريقته الإسلامية فى خمس صلوات فى اليوم، ولم أنطق بشىء طوال تلك المدة

فى البداية كنت لا أستطيع التركيز على فكرة واحدة أثناء السجود وتأخذنى أفكارى فى كل مكان حتى أن ذكرى جان كانت تعاودنى أحيانا لدقائق، وأحاول طردها بالتفكير فى شىء آخر، رويدا رويدا وجدت نفسى أشعر بسكون كنت أحدق فى الأرض وأبدأ فى الشعور بملامستها، حتى وجدت كل الأفكار قد توقفت

فى ذلك اليوم انسلت دمعة فجأة من عينى، أربكتنى سألنى بعدها عن شعورى؛ فأخبرته أنى أشعر بالإذلال، واستمررنا فى أداء السجود والركعات فى المواعيد المحددة كل يوم، من منزل السيدة الفاضلة أخرج فقط إلى إحدى الساحات مع نساء أخريات للصلاة، ثم أقضى الوقت فى التأمل فى هدوء بلا اتجاه، كان يتركنى بلا وجهة سوى تلك الوجهة فى الصلاة.

الهدوء يخيم على ريسيطر على كل الأجواء من حولى حتى غادرنى الاستماع إلى أى صخب، فى نهاية الأسبوع الثالث، أخبرنى أننا سنبدأ فى صوم، نظرت له فى صمت تعودته فى تلك المرة، وعندما عدت تناولت قليلا من الطعام كما طلب منى استعدادا لصوم.

واصلت ليلى بفجرى وذهبت إلى مكان الصلاة لبدء يوم من السجود مرة أخرى، وجدت نفسى أنهمر فى بكاء. لم أرفع رأسى من الأرض فى نهاية السجدة ولم يقترب منى أحد، تحول صمتى

بـبـكـائى إلى حـيـاة تـذكـرت فـيـهـا جـان بـقـوة . ليس جان فقط . وجدب أحداثا بصورتى تمر لناظرى ، ازداد بكائى وشعرت أنى أتمزق ، كان بكائى مريرا ، وتصاعد صوتى حتى بدا أشبه بصراخ آلمتنى حنجرتى جدا ، رفعت رأسى لأجدهم ملتفين حولى على وجوههم خوف ، وجاء هو على أثر صوتى أشار لهم بالسكوت وعدم الاقتراب منى ، كلمهم بالعربية ولكن إشاراته كانت واضحة .

ظللت على حالى فى تلك الحالة الهيستيرية من البكاء واقترب هو منى ، وقال

- إنها اللحظة سأطلب منك شيئا أعلم صعوبته . هل تقبلى من الله ما أعطى وما أخذ ؟

أومأت له بالموافقة . وبدأ بكائى فى الهدوء تدريجيا

عليك بطلب التوبة .

- توبة من أى شىء ؟ أكنت خاطئة !

- حسنا الخيار لك

صمت وعاصفة تشتعل بداخلى

***

استيقظت تلك المرة لأجدنى أنا

ظللت لساعة كاملة بعد أن فتحت عينى أدون كل ما أتذكره من أحداث ذلك الحلم ، حاولت تتبع أية خيوط بين تلك القصة وحلمى بالخصى وألكسى ، ولكن ما من خيط سواى . كنت الجميع

زادت فترات صمتي، فكنت لا أتكلم تقريبا إلا في البروفات اليومية التي كنا نتدرب فيها على الارتجال. التدريب على الارتجال يعني ببساطة أن تطلق العنان لنفسك، أستطيع ملاحظة كم القيود التي نفرضها على أنفسنا فلا تخرج كلماتنا الحبيسة إلا بصعوبة شديدة إن خرجت!

ذلك اليوم نظر إلينا أحمد راتب وقال

لقد اقترب الموعد.

ظللنا صامتين كما نحن، تلمس شعور الخوف يقترب من غالبيتنا سرعان ما نطق أحدنا

أظن أننا مازلنا في طورالإعداد، لم تكتمل تجهيزاتنا بعد

- ما من تجهيزات. وأنت تعلم ذلك جيدا

هكذا أجابه أحمد في سرعة ليعود صمت من جديد يغطي المكان

- متى الموعد؟

تساءلت أنا قاطعا الصمت مرة أخرى، فأجابني أحمد بأنه قد تبقى يومان فقط، حينها صرخ صاحبنا في أحمد كيف يقوم بتحديد الموعد دون أن يخبرنا؟ صرخ أن هذا نوع من الديكتاتورية لا يستطيع أحد قبوله، وأن القرار كان لابد أن يأتي بشكل جماعي، تركناه جميعا يكمل كلماته دون مقاطعة وأحمد كذلك.

لا أستطيع حساب كم من الدقائق مرت في تلك الثورة المفاجئة حتى أني لا أذكر كلماته التي أتت تقريبا بلا معنى سوى الرفض، حتى صمت بعد أن بح صوته فتكلم أحمد بهدوء:

- تستطيع الانسحاب لن يلومك أحد

كنت أكمل الجملة بداخلى. سوى نفسك

حسنا الأمور واضحة الآن، بعد يومين من الآن سيكون العرض الارتجالى الأول فى تاريخ مصر نعم الأول من نوعه لأنه ارتجال حقيقى، سيقوم به حفنة من الممثلين غير المحترفين راغبين فى زلزال عنيف، لن تتم الأمور كما هى بمخيلة أحد لسبب بسيط هو أنهم لا يملكون فى مخيلتهم شيئا

فى ساعات بسيطة تم حجز المسرح وتعليق البوسترات ونشر الإعلان عبر صفحات الفيس بوك والمواقع الإلكترونية المختلفة، لم ننشغل كثيرا لأنه لم يكن وجود لديكور أو شاشات عرض أو أى شىء سوى مسرح خال سوى من الجمهور المرتقب ومقاعده التى سيجلس عليها، اتفقنا أننا لن نتقابل حتى موعد العرض، وأن للجميع الحق فى الانسحاب، وأنه قبل العرض بخمسة دقائق فقط سنتفق على تقنية بسيطة ستساعدنا على الارتجال ومشاركة الجمهور، وسيكون هذا الشىء هو الوحيد المتفق عليه.

***

- ماذا تريد أن تصبح فى المستقبل عندما تصبح رجلا بالغا؟

- ألا تعرف؟ بالطبع تريد أن تكون متوفقا فى دراستك ربما تريد أن تصبح طبيبا أو مهندسا

- يبدو أنك لا تريد ذلك، ماذا عن ضابط شرطة أو جيش يمسك بسلاحه ويحمى وطنه؟

- إمم. واضح أنك لا تريد كل هذا، إذن ماذا تريد أن تصبح؟
- نبيا

أنا أحدق إليهما الآن، أراه كما هو صامت وإن تكلم، كلما كنت أنمو كنت أنفصل عنه، لم أشعر حتى بذلك الأسى عندما عرفت بخبر وفاته، ولكن جزعا عميقا انكسر بداخلى، أحدق إليها بجانبه فى صوة زفافهما، هى أيضا كما هى. تتكلم طوال الوقت ولكنك لا تفهمها ربما هى كذلك لم تفهم فى يوم من الأيام ماذا تقول، حينما تصبح الكلمات والصمت متشابهين أستطيع تمييز صورة بيتى وأسرتى.

فى عامى السابع كنا نشاهد فيلما عربيا على شاشة التلفاز، ووجدت بطلة الفيلم على وشك الإنجاب رغم أنها لم تتزوج، سألت أبى وأمى كيف تحمل جنينا فى بطنها وهى لم تتزوج - وفى ذلك الوقت كنت أظن أن هذا يحدث بشكل تلقائى ما إن تتزوج المرأة- لم يجبنى أبى وظلت أمى صامتة كما هى، فأخبرتهما أن هذا يبدو خطأ فى تنفيذ الفيلم، كنت أمتلك ذلك الحس النقدى منذ الطفولة، وذهبت إلى المدرسة فى اليوم التالى أخبر أصدقائى أنى استطعت أن أميز أحد أخطاء الفيلم، وهو أن امرأة حملت جنينا فى بطنها دون أن تتزوج، وهو ما كان يبدو لى مستحيلا فى وقتها

واصلت الذهاب إلى الجامع وحضور كل الحلقات الدينية، وشعرت بتنامى المسئولية بداخلى تجاه من حولى، كنت أصمت فى البداية عند سماع صوت شجارات أبى وأمى المعتادة، بعد وقت بدأ كل ذلك بالانتهاء، توجهت إلى غرفتهما بينما أخى قابع فى مكانه خائف من صوت الشجار، وفتحت الباب بعنف فنظروا إلى فى دهشة كبيرة منتظرين أن أتكلم

لم أعرف ماذا قلت فقد واصلت الحديث لمدة طويلة ولم ينطق أحدهما كلمة واحدة أمام ذلك الواعظ الصغير القابع أمامها؛ يوبخهما بكل عنف وسلطان على أفعالهما، انصرف أبى من البيت بعدها عدة أيام، ولم تكن أمى تتكلم فى تلك الفترة، وحينما عاد لم يخبرنى كلمة واحدة، ولكن اتفاقًا ضمنيا استشعرته بينه وبين أمى عن الامتناع عن أى مشاجرات فى حضورى

منذ تلك اللحظة شعرت بالخداع أكثر

نظرة واحدة إلى عينى أحدهما كانت كفيلة بكشف سخط عميق على الآخر ولكن تلك المرة فى صمت، هل كانت كلماتى بتلك القوة حتى تمنع شجارهما بوضوح إلى الأبد؟ تمنيت أن أعود بالزمن إلى الخلف مرة أخرى وأقبع فى مكانى صامتا خائفا كأخى الصغير، فقد أسست لمزيد من الخداع فى ذلك البيت.

فى تلك الفترة كان يتنامى بداخلى صراع مرير من نوع آخر، شعرت أنى مسئول عن كل ما يحدث حولى، وانفتحت عينى على مناظر البؤس والفقر، حينما كنت أحادث أمى أو شيخى عن

متسولى الشوارع كثيرا كانوا يحاولون غلق قلبى تجاههم بدعوى أنهم مخادعين يقومون بخداع الناس طوال الوقت من أجل أموال بلا تعب

عدت إلى المنزل أحد الأيام منزعجا جدا من كلمات شيخى ورأيت سيدة قابعة على الأرض تصرخ بينما تحمل طفلا صغيرا يبكى بحرقة، كانت تصرخ بأنها لا تستطع الحصول على ثمن لعلاج طفلها بينما تلوح بروجيتة طبية تؤيد كلامها، أغمضت عينى وواصلت السير بينما يكاد قلبى ينفجر من الانفعال. توقفت فجأة، أخرجت ما فى جيبى فوجدت جنيهات بسيطة، فركضت بسرعة جنونية حتى المنزل غير واع بشىء حتى أن البواب ظل ينادينى ظنا منه أن مكروها أصابنى، فتحت باب المنزل فى عنف، وتوجهت صوب أمى التى كانت بمفردها وصرخت فيها أنى أريد مائة جنيه حالا، انزعجت جدا من منظرى واستولى عليها خوف شديد، قبل أن تسألنى أى سؤال كنت أصرخ فيها مرة أخرى طالبا النقود؛ فأخرجتها سريعا. خطفتها من يدها وانطلقت راكضا مرة أخرى صوب تلك المرأة، ظللت أركض كثيرا حتى تمزق صدرى من اللهاث، وصلت لها أخيرا وأعطيتها النقود، أخذت تدعو لى كثيراً بينما انا أبتعد مستردا أنفاسى.

لم أسترد أنفاسى إلا ليوم واحد

فى مثل الساعة السابقة فى اليوم التالى مررت بنفس المكان فوجدت المرأة مكانها تبكى وتصرخ وطفلها الصغير يصرخ معها،

حدقت فيها متجمدا لفترة لا أعلم طولها، ثم رأيت أحد أفراد المرور يقترب منها ويخرج ورقة بمائتى جنيه يعطيها إياها فتعطيه بدلا منها أربعة أوراق من فئة الخمسين جنيه، كان يود أن يستبدل تلك الورقة بعملات أقل حتى يستطيع شراء شيئا ما بالتأكيد. بدأت أشعر بالاختناق وقتها ونظرت إلى الجميع يسيرون غير ملتفتين للمرأة وصراخها، فبدأت أتساءل هل لابد أن أن أُصاب باللامبالاة مثل البقية أم أن أبالى؟ ربما لم يكن الأمر فى ذهنى بهذا الوضوح ولكنى أردت من قلبى أن أضرب تلك المرأة وأن أضرب الجميع أيضا هذا ما شعرته.

عدت إلى البيت محطما وظللت عدة أيام لا أكلم أحدا وأمى وأبى يكاد القلق أن يشلهما حتى عدت إلى طبيعتى تدريجيا بشكل صورى، ولكن ما حفر فى القلب قد حفر

ما بدأت ملاحظته بعمق فى تلك الفترة هو تغير شكل صلاتى .طالت فتراتها بشكل ملحوظ وعندما حل رمضان التالى لتلك الأحداث كنت شبه معتكف يوميا فى المسجد أقرأ القرآن فترات طويلة وأصمت بقية الفترات، ربما لم أكن ألحظ ما أقرأه، ولكنى اعتمدت على تلك النبرة والإيقاع يغزونى عند القراءة حتى صار لى هذا أشبه بمسكن، لم أكن أريد الاشتراك فى أى شىء، وكنت أريد الاختلاء طول الوقت وعدم التحدث مع أحد شعرت بانفصالى عن الجميع فى الوقت الذى حاول الكثيرون فيه التواصل بشكل أعمق معى، أصبح حضورى فى المنزل بمثابة إشارة لوجوب

التوقف عن أى أحاديث غير منضبطة أو التلفظ بأية ألفاظ جارحة، طلبت أمى من أخى التشبه بى فى كل شىء

الهوة بينى وبين أبى زاد اتساعها، لم يكن يعاملنى بشكل سيئ، ولكن نظرته لى كانت توحى بفراغ عميق بداخلى، وكانت نظرتى له محملة بإدانة غير مسبوقة، وكأنه هو المسئول عن معاناتى التى لم أفهمها وقتها

هذا الجمع الضائع المشتت الكاذب ينتظر من يقوده أو يرشده هكذا تصور لى مخيلتى المريضة جمهور العرض الارتجالى الأول، وعمق بصيرتى بالكذب فى كل شىء من حولى يزيد الأمر صعوبة تلك النظرات الخادعة كلمات التملق الحقيرة التمثيل غير المتقن فى كل مشاهد الحياة. نظرات الحب المحملة بالكراهية. وكأن الوعى لعنة حلت بى، ولكنى أعرف الآن جيدا أنى لن أقدم له سوى الحل الوحيد الصمت

أغمضت عينى وأبعدت صور الجمهور عن ذهنى لأغوص فى عالم آخر ها هو يتشكل بوضوح.

طبقة الوعى الرابعة

تمر أيام الحمل ببطء، بطء الألم والسعادة، يزداد الثقل كلما اقتربت الساعات الأخيرة، كنت ذاهبة للقابلة لقضاء تلك الساعات فى مكان الولادة، الكاهن هو من قرر ذلك اليوم بعد مشورة من القابلة، توسلته أن يمهلنى ساعات أخرى فى اليوم التالى إن احتجت لذلك لربما تشفع لى مكانة زوجى فى ذلك، قابلة واحدة للمملكة كلها وللكاهن أن يراعى انشغالها ولا يسمح لأكثر من حبلى بالولادة فى نفس اليوم، مقدسات البدن هن من تختارهن الآلهة لتساعدهن فى الولادة فى يومهن المحدد؛ وإلا حكم على الأم بشقاء الولادة منفردة، وحكم على وليدها بعدم الاقتراب منه مدة عامين كاملين إلى أن تظهر الآلهة من جديد قبوله.

يطول الطريق رغم قصره، أستند إلى خادمتى القصيرة المرحة، البيت ليس ببعيد عن بيت القابلة، لا أعلم كيف مزجت تلك القصيرة كل أوجاعى بسخريتها المضحكة.

- هل سيسمح سيدى لك بولادة جديدة تفتح له أبواب الحيرة؟

- ها ها

كفى ما يعانيه فى اختيار أسماء أولاده وأحفاده، كلما مر عاما فكر فى اسمين جديدين عل أحد أولاده يرزق بفتى أو فتاة، ستزيده الحيرة حيرتين حين يسأل الكاهن من جديد عن أسماء تليق بالمناداة أمام الآلهة

ها ها كفاك.

- أما إن رماه الكاهن باسم كما حدث من سنتين (تسعم) سيتلعثم ليردد له أتقصد أن أن أن يصبح اسمه يشير إلى. إلى تسع ممرات لنزهة الآلهة، ها ها ها سيجن مرات ومرات وسيذبح له الذبائح أقصد سيذبح للآلهة حتى تتنازل عن ممراتها هاها هاها أقصد عن اسم المولود.

كفاك يا قصيرة. يا جاهلة بالآلهة..ها ها

بالفعل صمتت القصيرة عن المزاح فقد كنا أمام القابلة وأصواتى تعلو أمام البلدة كلها بالضحك المختلط بالصراخ، تثنت ركبتاى ولم أحتمل النهوض ولم يكن له داعٍ، صوتى يخون صراخى بالضحك، لا أتوقف رغم مكوثى على الأرض عيانا أمام المتفرجين، لم تختلط ضحكاتى إلا بصوت جديد من تحتى، خيل إلىَّ أنه يضحك أيضا فلم

أسمع طيلة ولاداتى مثل عذوبة ذلك الصوت المعلن عن استقباله الحياة،

لم يدم بقائى طويلا وكأن مدة ولادتى هى تلك المسافة فقط، دخلت القابلة وبيدها الطفل لم تسألنى عن اسمه كانت تضحك هى كذلك مما رأت. فقط رشت عليه الماء ولفته بأقمشتى، قالت لى فيما بعد أنها دونت على جدارها أن فى هذا اليوم ولد (ابن الضاحكة سالًما)

عدنا إلى البيت، ولم ير مولودى الجديد كل أفراد أسرته دفعة واحدة، علم الجميع بشأن طفلى ربما أكثر مما أعلم، كانت القصيرة تنقل إلىَّ أخبار تتناقلها البلدة حول تلك الولادة، حتى إننى كنت فى شغف يومى طيلة سنة لسماع تلك القصص، حكت لى أنهم يقولون إنه ولد مبتسما دون بكاء تداعب يداه السماء كأنما تلاطفه الآلهة، وقالوا ولد يضحك كضحك الكبار بصوت مرتفع أخاف من حوله من أعداء المملكة، قالوا إننا والطفل ظللنا نضحك أسبوعا وظل كل من يقترب من مكان سيرنا يضحك حتى أنهينا ضحكات لم تضحكها البلدة طيلة أعوام، وفى الحقيقة جعلتنى كل تلك الأسمار أضحك كلما نظرت له.

يدخل كل يوم إلى "تسبا" عدد لا بأس به، لم يستغرق الأمر تعقيدا كما سبق فى اختيار اسم مولدى الجديد، فما إن علم زوجى بحادثة ولادته حتى نظر إلى السماء شاكرا لها وأسماه إبتسامة السماء.

لم يأت أحد لزيارة تسبا إلا وهو يذكر قصة عجيبة من القصص المتداولة حول ولادته، قابل تسبا كل الوجوه المبتسمة بابتسامات، وقابل كل الضحكات بمزيد ضحكات، حتى أننى لم أر وجه وليدى يوما عابسا

ظل تسبا وجها يشفى كل وجوه الزائرين وألقى حبا للابتسام لم أشهده من قبل، كلما زاد عدد زائرى "تسبا" زاد داخلى خوفى عليه، حتى إخوته وأولادهم لم يأتوا لزيارته يوما دون ابتسام وعلت فى بيتى أصوات الفرح.

لم يأت سمت إليه يوما دون أن يختلى به ساعات، طلب منى ومن القصيرة كثيرا تركه مع الوليد، أو أزاح قدميه وهو يحمله إلى ركن جانب المصباح، زاد فضولى فلم يكن لأخ كبير أن يختلى بالصغير كل هذا الوقت، تسللت وراءه يوما وها هو يحكى له أشياء لم أسمعها ولم يكن ليسمح لى.

آه يا سمت، كم تمنيت أن تصبح سندا لوالدك يوما، أنت لم ترغب فى الكلام مع أحد، وها أنت تختلى الآن بالحديث إلى وليد جديد، ربما تكترث له كابن لك لم تحصل عليه من زوجتك إلى الآن، لربما ترى فيه ما أردت أن تلقاه حين عودتك للبيت، سأكثر من ذبائحى للآلهة على ذلك مهما كانت أسبابك فنتائجك ترضى محبتى لوليدى الأول وابتسماتى بوليدى الأخير

عامان مرا وتسبا لا ينهى ابتسامته حتى ظن زوجى أنه خلق هكذا. أنا فقط من أراه نائما أو متوجعا كالأطفال جميعهم. أنا

فقط من رأيته، سقناه سويا إلى المعبد لتظهر الآلهة من جديد قبولها القرابين كلها تليق وكاتب المعبد وانتظار القبول يشلى لنا بكامل الخشوع والمهابة، مد الكاهن يده ليلتقط تسبا من أبيه أمام حجرة الدخان ليبدأ طقسه فى استقبال الحياة المقدسة

هيا يا تسبا عليك النظر داخل الدخان مرة، وعليك إغماض عينك بعدها، راودتنى ذكريات سمت وليدى الأول وتذكرت ارتجاف يوم القبول، ظننت أن الألهة لن ترضى أبدا وأن لوليدى خوفا بالطبع سيمنعه من النظر، هجرنى ذلك الخوف فى كل ولاداتى الباقية بالطبع سينظر وليدى أولا نحو ذلك الباب وهو يفتح، ثم سيغمض عينيه من أثر الدخان هاها

اصمتى كيف تجرؤين هل أتيت هنا بأوهام القصيرة؟

نهرت نفسى لأعود لمهابة الآلهة ولأفتح عينى على صوت وليدى الذى لا يراه سواى، ها هو الكاهن يغمض عينيه أمام الباب ليدع طفلى يستقبل وحده الدخان، ها أنت يا تسبا تضحك بصوتك المبتهج. أسأل عينى هل تخوننى أم أنت بالفعل من لم يغمض عينيه وظلت يداه تعبث بالهواء الملون أمامه. أحسست بأن وليدى يرى. أو يعبث بما لا نراه. أحنيت رأسى من جديد لأستقبل بذراعى وليدى بعد أن أخلاه الكاهن لى.

فكرت كثيرا فى طريق عودتنا، هل سيأتى اليوم لأدون فيه أن عينى انفتحتا أمام طقوس القبول، وأنى رأيت تسبا يعبث بالدخان المقدس؟ هل سيقرأ الملك هذا دون أن يشى بى أو يزيد زوجى أعباء؟

أقصد هل ستصفح عنى الآلهة حين أبوح لها بذلك أم ستشى للملك بمعاقبتى ؟ آه أنا بحاجة جديدة لأزيح ذلك عنى. أه يا وليدى الجديد لم أكن بحياتى كلها لأحمل تلك الأحمال.

الحياة تغنى كلما لفتنى عائلتى الكبيرة، ها هو آخر أبنائى يذهب مع أحفادى إلى زوجى نهارا يعلمهم الكتابة والتدوين، يرجعون إلى أكبر يوما بعد يوم، الجميع يتعلمون وأشكر الآلهة لصلاحهم فى التعليم ؛ فمن جبنت يداه عن الكتابة حكم عليه بالموت أو بالعبودية طيلة حياته لأهل المملكة، ما كان لأحد من صلب كاتب المعبد ليكون عبدا ذات يوم وهكذا قدستنا الآلهة.

يمر تسبا أمامى ضاحكا كعادته وتمر القصيرة وراءه باهتمام ورفق، أحمد الآلهة أنها أحبته كل هذا الحب طالما أحسست بنهاية العمر ،بعد وليدى التاسع لم يكن ذلك الإحساس ليراودنى بمفردى زوجى كذلك يحمل الآن أعباء العمر والتدوين، ها هو يستمر فى حث الناس على كتابة كل شىء كل يوم ويتابع أهل البلدة كلها ليدون كل من له يد ما يفعل كل يوم فى صحيفته الخاصة.

***

باح لى ذات مساء أنه لم يعد فى كامل صحته الآن وأنه كم تمنى أن يرب السر ابنه الأكبر، ها هى السنوات مرت سريعا لم يصبح سمت أبا يوما سوى لأخيه الذى شارف الثانية عشرة بابتساماته المعهودة.

آه الخذلان صعب، لم يعبأ سمت يوما بتلك المهنة، أشفقت على زوجى مرارا وأشفقت على ولدى من حمل تلك المشقة مرات،

ليست القداسة كلها نعمة، نهرت نفسي من جديد، كيف لا تكون القداسة نعمة؟ اصمتي كفاك ما تبيحه القصيرة داخلك من سخرية دائمة.

يوم جديد من ضحكات الأحفاد، ويوم جديد من أيام كاتب المعبد، يوم لا كالأيام ذلك الذى يظهر فيه بعض المدونات للملك، علَّ الآلهة تعفو أو تأمر الملك بالأخذ بالثأر أو بأخذ مزيد عطايا لها، الآلهة دائما تسر للملوك ما فيه مصلحة الرعية، والكاتب المقدس عليه أن يساعد الآلهة على الاطلاع على كل تلك الأعباء

فى آخر العام يظهر الملك للرعية لينقل لهم مراسم جديدة للآلهة، ومراسم جديدة للحكم، بل ومراسم جديدة للعيش، هكذا اعتدنا العيش، الجديد يجعلنا دائما بلا توقع، الجديد يجعل النساء حيارى ويجعل الرجال فى مزيد عمل

الكهنة يعرفون أكثر، أقصد بعد الآلهة وملكنا المبجل. لم تكن أى سيدة بالبلدة لتصدق أن ظلاما سيأتى ليلا ونهارا، ولن يبقى ضوء سوى مصابيح الزيت أيام، لن يذهب الرجال للعمل، لن تعطى المحاصيل خبزا، لن تكتب الأيادى سطرا حين أعلن كبير الكهنة أنه نظر للنجوم وأن أفلاك السماء باحت له وأن الآلهة لا ترضى عمن كذبوا تدوينهم وأن ظلاما سيحل على القرية أياما حتى يعود للناس صدق تدوين الخطايا ثانية.

علت صرخات النساء كالثكالى، وطأطأت الرجال الرءوس، صاحت الكهنة بالويل لمن لم يدون خطاياه، وجاء زوجى كاتب

المعبد حاملا كتاب تدوين، نقش عليه اسمه خارجا، سار أمامى خارجا من البيت وكأنه مصابا بالصمم، ناديته مرات دون أن يلتفت ناحيتى ولو لمرة، تابعته إلى باب المعبد ولم أكن أتابعه بمفردى، خرجت وراءه أهالى البلدة يحاولون الحديث وربما لا يحاولون الحديث، تزيده كل كلمة شيبا ويزيده الصمت عجزا، لم أره طيلة حياتى بكل ذلك العجز والشيب، ألقى كتابه أمام كبير الكهنة المنتصب أمام المعبد منتظرا البلاء، أحنى زوجى رأسه ولم يرفعها بعدها، رفعت عنقه المطأطأ وجدته لا يحوى أنفاسا

الموت والظلام الحالك ومدونات مفقودة وأبناء وحفدة، تلك هى أوراق الميراث، الزوجة لها الحظ الأكبر دائما من السعادة والبؤس فى آن، أما عمرى المتهالك فلم يترك لى وقتا للدهشة لربما ألحقنى الآلهة بكاتب المعبد قريبا لندون سويا صفحات بلا خطايا

الظلام الآن أقرب، تأتى الصباحات بقليل ضوء أو هكذا أشعر مع كل غيمة تمر، إلى حين انحجب الضوء تماما، ها أنا قابعة فى حجرتى، العواجز أمثالى لا يعبأون كثيرا بالضوء، تخذل العيون أمثالى كثيرا فأعتمد يداى عينا

اطمأننت على سمت رغم أنه الأكبر وربما الوارث المنتظر إلا أنه لا يزال عندى طفلى الأول، سألته أن يطمئن على باقى الأولاد والأحفاد، وطلبت من القصيرة كذلك مراعاة تسبا

اعتمدنا على زيت المصباح ليالى معدودة، كباقى أفراد المملكة

حاول رجالي وصبيتهم الخروج للبحث عن طعام وماء، الأيام القادمة مجهول مظلم حتى أن النساء خرجن كذلك للبحث عن مزيد ماء، الطعام أصبح أغلى شيء يمكن الحصول عليه، الحيوانات نفسها أشاعت الرعب من أناسهم حين دام الظلام أكثر

الصمت موحش لا وقت للخطايا ولا وقت للعطايا، لا ملك مبجل ولا خلاص منتظر، الأطفال أول من انتظروا الموت قبل الحياة، هكذا أعلنت الآلهة لعناتها على مملكة بائسة

لم أدرك الأيام ولم يكن من داع للإدراك، إلا حين كثر سؤال القصيرة عن تسبا، تسبا ذهب للنوم كعادته مع آخر ابتسامة تسمع فحيحها وسط ظلام ولم تجده القصيرة بعدها، لا مكان للخروج. الذهاب بعيدا ربما يعني اللاعودة، تساءلت كثيرا أين يمكن أن يكون؟ هو لم يعتد الذهاب والتأخر بعيدا عن قصيرته طويلا، لا وقت للتعلم لا وقت لنقاش ولا وقت للوقت فقط الظلام والمكوث بلا انتظار

قلبي لن يساوم الآلهة مجددا، اتركوا لي ابتسامة السماء واذهبوا بلعناتكم حيث الظلام الذي نشرته أقداركم. الموت والعجز يكفياني. تحاول إحدى فتياتي تهدئتي، ولم أكن أحتاج لكثير من الوقت لأهدأ. العجز يجعل الهدوء أوقع فلا تملك عجوز مثلي مزيد أنفاس للبوح بالسباب سريعا هدأت

سمت لا يعبأ كثيرا بالأحداث، نقلت له القصيرة أن تسبا لم يعد للبيت وربما لم يغادر، طلبت القصيرة من الجميع وأمرت نفسها

بأن تتحسس مكانا لتسبا، ربما حصلنا على رفاته وتلمسناها قبل أن تنشر رائحتها فى الظلام، سمت كعادته لم يعبأ، ذلك الظلام لم يجعلنى أرى وجه طفلى الأول لأعلم شيئا لكن صوته وشى لى وللقصيرة بشيء من الاطمئنان.

الساعات تمر وربما هى أيام أو أسابيع؛ فنحن فى لا وقت، لا أثر لتسبا ولا رائحة لجسده، الاطمئنان والأمل والخوف والمجهول يحاصرون عجزى، تحاول القصيرة التوقع بلا جدوى، وأحاول تحسس المزيد من التفاصيل كما يحاول أبنائى

أربعون يوما من الظلام المنقضى، ذاكرة الأرض ستمتلئ بما خلفته على ظهرها ولم تستره فى جوفها، أزاحت غيمة النور أيام ظلمة ليكشف عن الموتى والأحياء، انشغل الجميع أولا بالطعام. بالدفء بإزاحة قذارات الأجساد ومحاولة الرؤية من جديد

أما عيناى لم تنفتحا للنور لكنهما انفتحتا حين تسربت إلى أذنى صرتك وليدى. تسبا لا تزال رئتاه تحمل الأنفاس

كعرس جديد كنت أعيش بقلبى حين علمت بأن ابتسامات السماء لا تفارق بيتى، لم أسأل تسبا أين كنت بل والأغرب لم يسأله أحد، فى حين وجهت سؤالى لسمت، هل تعلم أين ذهب أخوك؟ وكان جوابه أنه ذهب للحقيقة، اكتفيت برده على سؤالى وربما اكتفيت بعودة تسبا دون فهم لجواب تكفى إجابته بالعودة.

لم تكن عودته لى فقط فقد عاد للجميع إذ زادت زياراته لأفراد العائلة كلها. بل وزادت كلماته وأسئلته أيضا، لم يكتف بذلك فقد

صحبه سمت إلى الأقارب بل والأصدقاء بل وإلى كل من بقيت فيه حياة بالمملكة.

شيء جديد بدأ يطرأ في بيتي، يأتي سمت بعد يوم عمل في البلاط بالطبع بعيدا عن التدوين، ليحكي لنا سخافات التدوين الحمقاء وأعباء كاتب المعبد الجديد، فقدان كتب التدوين جعله يبحث عن شيء جديد للكتابة، أما أعوان الملك فلم يكفوا عن البحث بدءا بمنزلنا فيما حوله عن كتب التدوين القديمة، البلاط معقد والعمل فيه أكثر تعقديا، يسخر سمت كعادته من علم الملك المبهم الذي لا يستطيع إظهار ما ضاع بوفاة والده الكاتب العظيم.

تسبا ها أنت تعود من عملك الجديد، نعم لقد أسميته العمل بعد أن أصبح هو نشاطك الذي لم يكن لأحد أن يبصره غيري، تذهب لأشهر للعمل في الحقول والمحاطب، تذهب للغرل وتربية الأطفال مقابل قوت يومك، تأتي إلى قبل الغروب بابتسامتك المعهودة لتقترب مني هامسا أنك بخير

أما سمت فقد اكتسب بك صديق عمره، ها هي السنوات تمر انتقلت من كونك ابنه المدلل المُباح له بالأسرار إلى الصديق المقرب، اعتدتما على الحديث طويلا ليلا واعتادت القصيرة على خدمتكما رغم كبرها، بل واعتدتما كذلك على خدمتها وخدمتي حينها أحسست بالثمرة وبقداسة كاتب المعبد.

تسربت إلى أذنى مع صوت ضحكتك يوما أن "الجميع سيصبح بخير وتساءلت عن أى جميع تتحدث؟ إخوتك وأخواتك آباء وأجداد، أمهات وجدات، والكثرة والعمل تغنى الجميع وتشغلهم عن الجميع أيضا يكفيهم العمل والتدوين.

عن أى جميع تتحدث؟ أبعد تفريق الجمع يصلح حديث عن جمع؟ السنوات والشيب لم يبقيا فى بيت كاتب المعبد سواك أنت وسمت والقصيرة وبقايا أنفاسى.

وقتا يمر منذ تلك الجملة بأن الجميع سيصبح بخير إلا أن ذاكرتى احتفظت بها حين تسرب إلى مسامعى الوعيد، ها هو الملك يرسل أتباعه ومناديه ليتوعد بالويل، الويل لمن عصى وأدبر، الويل لمنعة التدوين، الملك سيرسل المزيد من الكتبة

التدوين هو ما يدينك والتدوين هو ما يعفيك، والويل لمن لم يطلب المغفرة ومن لم يدون خطاياه، الويل لمن عاش مجهولا، الجميع مأمور بالتدوين حتى نحن آل كاتب المعبد المبجل، ها هو الأمر بالتوجه إلى المعبد للتدوين يخصنا ويشملنا، وتتحدث أنت بابتسامتك عن "الجميع أغمض مسامعى التى أجبرت شيخوختها على جهد الاستماع، ربما الجميع بخير أو لا خير ماذا يفيد؟!

"الغضب يبدو وشيكا" قالتها القصيرة بصوت مرتعش ولم يبد لى أنها تحمل داخله سخريتها المعهودة، طالت جلستى معها لأفهم ما أفلته الزمان منى، قالت إن الملك أعلن عن لعنات الآلهة من جديد وأن عصاة

التدوين لا يجدر التعامل معهم؛ لأنهم حملوا خطاهم ولم يطرحوها أمام الآلهة كذلك لن تطرح الآلهة غفرانها لهم، سألتها عن سبب امتناعهم عن التدوين، وردت أنها لا تعرف هل سئموا الملك وأفعاله أم عرفوا طريقا آخر للحياة، أصلحت كلامها بأنها تقصد أنهم سئموا تلك العادة وراحوا يبحثون عن طريقة جديدة للتدوين، يبحثون عن طريقة جديدة للحصول على رغيف وماء وستار لعوراتهم غير التدوين.

أنهت كلامها بنبرة الكاتب نعم وكأن أنفاسه الأخيرة نطقتها هى، ربما هذا ما أراده قبل المغادرة طريقة جديدة غير التدوين تشفع للملك للبقاء كملك، أقصد تشفع للناس أن تترك الآلهة لهم الرحمة وتمحو عنهم الخطايا ربما

***

المملكة كلها فى فوضاها وأصواتها الهامسة والمزعجة فى آن تقلقنى يزيدنى قلقا أننى ألتقط حرف اسمك عبر مسامعى مرات، أصوات مجهولة تردد "تسبا" كلما مرت الأيام زادت الأصوات المنادية بك أشعر أنك تخبئ عنى تدوينك، تخبئ عنى شيئا من عملك من نيتك. وتخبئ ابتسامتك قدرك.

الأمر زاد عن مجرد ترديد اسمك. الباب يطرق أكثر بزوارك حتى سمت اصطحب زوجته رغم غضبها إلى بيت كاتب المعبد لتقيم فيه للأبد

سألت مرات الزائرين لماذا تريدونه، إجاباتهم تحمل لى لا شىء دائما، لكن أحدهم ردد لى بصوت متقطع "أريده لأنهى بؤسى

ومشى لم أعلم أن ابتسامتك قادرة على إنهاء بؤس سوى بؤس عجوز مثلى غاب الضوء عن عينيها وغبت أنت معه كأنك اصطحبته حيث تريد، هل هكذا تنهى بؤس المزيد من الناس؟

***

ها هى أعداد الكتبة تزيد، فى حين يعلن سمت يوما أن الملك يفزعه الفارين من التدوين وتزوره الشياطين بلعناتها ليلا، نعم، أعلن أخوك عن زيادة الكتبة وأعلن كذلك رفض آل كاتب المعبد فى التدوين رغم أمر الملك لهم، أفزعنى ذلك أيضا دون أن تقذف الشياطين إلى اللعنات، يكفينى ما سيقذفه الملك علينا وما سيمنعه عنا

تدفع عنى القصيرة خوفى بالسخرية من لعنات الملك وحسناته، اسمك يا تسبا يدوى حولى جهرا وهمسا، صوتك يا سمت يعلو حولى بالترحاب بالمزيد من الناس إلينا وإلى الانضمام، بدأت أعتاد أصواتا بعينها، اختفت بعد عدة مرات نبرات الخوف وارتعاشات الأصوات، بدأت ذكرى كاتب المعبد تعودنى فالجميع تردد أصواتهم اسما ترتسم عليه قداسة الكاتب المبجل هكذا أحسست أنك وارث

لم يكن بمنأى عن عقلى أن أعى ما يقال، "تسبا يعرف طريقا للخلاص"، من ؟سألت نفسى مرات وأجبت نفسى ربما لابتسامته طريقا سأعرفه!

***

التصنيف الجديد وشى لى بالخوف، الكتبة وأتباع الملك، الأتقياء والهالكون. وكما كان خوفى فقد كنا قد عرفنا بالهاكين كذلك

تزداد الأصوات من حولك وتزداد الأصوات حولى كذلك، أصوات تردد اسمك يا تسبا فى ازدياد وأصوات ذئاب الملك تعلن اللعنات.

أذكر حينها عدت أمام نظراتى الغائمة دون ابتسامة وجهك المعهودة، فقد كان فراق القصيرة عندك كفراق يمينك عنك، كانت ترعى طفولتك وصباك، وكان عزائى كلماتك عنها بأنها عاشت مع الإله وأوجدت لنفسها خلاصا قبل الجميع.

حقا كانت القصيرة تمقت التدوين، تمقت الملوك المتألهة، وتفتخر بسخريتها الصادقة وإن زينتها بإعلان الجهل.

لم يخف على بعدها ما تقول؛ فالإله الخالق أحق بنا ونحن أحق به ممن سواه، الملك عجز عن كل شيء عجز عن المعرفة عجز عن الغفران. وعجز عن منعك.

إرشادك الآن يزداد، وأصوات السائلين كذلك، يدفعك تسبا إلى حكمة العمر ويدفعك جسدك الشاب على العمل بالمزيد

وأنا كذلك تحلقت حولك طمعا فى المزيد، حينها أحسست هيبتك وحاوطنى ذهول، فكرت مرارا وعاودتنى كلمات كاتب المعبد لى ذات يوم سمت لم يخلقه خوف. وتسبا نتاجه وثمرته

علمت وقتها ما أخفته شيخوختى عنى، الأربعون ظلمة هى من عرفتك بالخطايا، واخترت بعدها أياما لتعرف عن قرب من جديد معاش الناس وأحوالهم.

سألت تسبا عن فهمي لأتأكد أن حماقات العجز لم تصبني بعد، أجابني بأن سمت عرف من أين يبدأ، فبدأ بما خطه الناس عن أنفسهم، وأنه عرف أين خبأ الكاتب الخطايا

وكان لعجوز مثلي أن تسأل كيف قرأت في ظلام البلدة؟ وكيف رزقت وسط الوحدة والمعزل؟ وما كان من وليدي الأول إلا أن يدعوني لزيارة ما أخفاه كاتب المعبد عن الجميع لسنوات.

ها أنا وسط حجرة لم تعبأ عيناي المتعبة في متابعة نهايتها، الصحف تملأ المكان تبدو لي مرتبة بعض الشيء، أرشدني إلى بقايا شموع كثيرة، تهكم سمت بأنها تكفي لأن تشعل لأشهر، خبز جاف لا يقبله الملك ولا أتباعه كان أبي يقبله لكونه كحامليه، هكذا عرف وتغذى وأبصر سمت قبلنا يا أمي وعاودت نظري لوليدي في طمأنة،

صرخة اندهاش أصابت الرجل حين سألك "كيف سيغفر لي الإله ما دونت من خطايا؟" وكنت المجيب بأن عليه هو محوها بنفسه، أوقعت بين يديه الصحف وأودعت قلما بكفه، طلبت من الجميع ذلك من قبل، "فقط المحو يمحو والمغفرة تغفر، فمن أقدر على الغفران إن لم تغفروا لأنفسكم؟ ومن أحق على الشفقة بكم منكم؟ سيغفر لمن يغفر ويمحو

بابتسامتك ترشد من أراد مغفرة الإله إلى صحفه المدونة، وبيقين تطلب منه المحو يزيد عدد الغافرين والماحين كل يوم وتزيد لعنات الملك من أصواتها

اعتدت منذ مولدك الاستماع إلى ما يدور عنك، الحكايات عن اسمك وعن ضحكاتك مازالت تتردد بين النساء والأطفال، بل ويزيد عليها الآن معجزاتك.

آمنت أنا كذلك بالمعجزات، معجزاتك التى أعرفها أنا، ولا يعرفها سواى، ابتساماتك هى معجزاتى التى أؤمن بها سرا أما ما يقال عن سواها فلا أردها إلا بمعجزة ابتسامة أخرى تعلمتها منك.

سمت ينضم إلى الآن، أنا وهو بعد سنوات أصابنا الكبر عجزا، تحول وليدى الأول إلى رفيق لشيخوختى ولم يصاحبها طويلا أشهر منذ أن أفلتته قدماه ذات يوم لترقده على سرير ويودعك موصيك بالطريق، همس لكلينا أنه ستسبق روحه، أرواحنا إليه، وأن روحه ستنتظر الصحبة للقاء

أصبحت يتيما مرتين الآن. الكاتب العظيم واهب جسدك وسمت بما لا أستطيع وصفه من كونه لك.. ربما كان بابك للوصول، الآن فتح بابك وكان حارسه حتى حان رحيله.

أحوال البلدة بأسرها تغير، أصبحت معلنا لنهاية حماقات الخطايا والتدوين وحماقات وجود آلهة يحركها الملك. أما الملتفون حولك فأنت الآن قائدهم ومرشدهم فى طريقهم الجديد ومجيب أسئلتهم أيضا.

يفزعني صوتك حين يعلو صوتك الحاني يعلو بالغضب كلما طلب منك أحدهم مهاجمة الملك، ترد أسئلتهم سؤلك وماذا يفيد أسركم لمسجونى الخطايا إن أنتم غفرتم؟!"

انضمام المزيد إليك كان يعني لي حمايتك، ولم أكن أعلم أنه سيزيدك شقاء، رسمت الابتسامات على وجه من حولك حين أشيع أن بعضا من كتبة المعبد رفضوا أن يدونوا للناس الخطايا، بل وزاد الأمر حين حثوهم على الإقلاع عن الإفصاح للملك بما يجهل عنهم. كان لكتبة المعبد المنشقين البداية إلى ما نحن فيه.

أصبحت من ساعتها محملا بالكثير، الأسئلة عن كل التفاصيل تؤذيك، حاولات مرارا أن تجعلهم يسترشدون بأنفسهم. بأرواحهم الغافرة، كررت لهم بسكينك "أنتم الأقدر على فهم أنفسكم مني، كونوا أنتم وأحيوا تحيوا صالحين، كثرتكم لا تفيد إن كانت أسفارا وأرواحكم تنجيكم وإن كنتم صغارا"

أما الملك وأعوانه أصبحوا الأضعف الأقل زادت الرغبة في المزيد السيطرة على المملكة الآن أصبح أكثر سهولة من ذى قبل. فقط أتباعك ينتظرون منك الرأى. أقصد يحاولون إجبارك على الموافقة والصمت منك يزيد

لم يعد بوسعهم الصمت مثلك فكتبة المعبد المنشقين اعتادوا أن يسمع لهم. وها أنت لا تزال تدعو لأن يسمع كل إنسان صوته، لا تزال تردد "أنتم تغفروا وأنتم تعاقبوا وتسيئوا"، حاولوا الحديث معك عن إعلان مملكة جديدة لا تعرف الآلهة ولا تجعل التدوين

قانونا، طلبوا منك بقسوة أصواتهم المتزايدة أن تخلو لإلهك لتقر ما أرادوا وابتعدت أرواح الكثير ليطلبوا كذلك الكثير

القلة لم يقبلوا أسر تابعى الملك، القلة حاولوا إقناعهم بالفكرة، حاولوا أن يقربوهم لحياتهم وأصواتهم ومغفرتهم. القلة فقط.

***

رأسك الأن على كفتى، تغمض عينيك بابتسامة أتحسسها على وجهك، وقاحتهم سيدونونها لأنفسهم من جديد لن يستطيعوا محو خطيتهم الجديدة. جسدك الآن كتاب تدوينهم الجديد. لم يكتفوا بحياة أرواحهم المكتشفة. طالبوك فى خلوتك أن تخرج إليهم بالأمر الأمر بأسر تلك القلة الملتفة حول الملك. أياما من الإلحاح وصمت منك يزداد. الاستياء مما أرادوا يزيد والالتفاف حول خلوتك يزيد أيضا مكانا لا زاد فيه سوى الهواء، وأناس يزيد إصرارهم على كسب المملكة بأكملها تحت لواء جديد وأنت لقانون روحك أبقى.

الأتباع والأولاد والحفدة سواء، أنا العجوز لم أكن لأميز من بين الجميع سواك. كنت كلما قابلت أحدهم سألته عنك، عن خلوتك وعن الزائرين؟ لطالما أجابونى كطفل بكلمة واحدة لتصد سؤالى بخير

مرت أيام لم أعلم طولها إلا حين أوحشتنى. طالت غيبتك عنى دون ظلام جديد وكثر سؤالى عنك، حين أشفقت واحدة ربما هى حفيدتى إلى مزيد توضيح حين حكت لى أن أحدهم طالبهم بألا

يقطعوا خلوته إلا حين يصيح لهم بالأمر فقط سينتظرون منه الأمر منعوا أحدا من الدخول إليه ومنعوا كذلك قوته عنه.

يداك الباردتان تدعوانى لمصاحبتك تحلقوا حولك بكثرتهم وأماتوك فى وحدتك لم تخرج لهم ولم تصح ولم تحاول. فقط جلست مع ابتسامتك للإله ترك لك الابتسام على وجهك شفاء للجوع والعطش أما عصاة الأرواح فنادمون على قتلك ولا يزالون يقتلون أنفسهم.

استيقظت أو أفقت بالتأكيد لم أنم.

نظرت إلى المرآة فى صمت، نحن صورتان تنظران إلى بعضهما فى صمت نتعرف على بعض، كل منا يرى الآخر فى حالة يقظة مكثفة من الإدراك المباشر والمنفتح لا يفكر أحدنا فى الآخر لا نتبادل أسئلة لا يسأل أحدنا الآخر كيف وصل أحدنا إلى ماهيته الحالية كيف سيتغير، وفيما إذا كان شريرا أم طيبا فقط فى حالة من الإدراك فيما بعد ربما سنفكر أو نحلل أو نستوضح، ولكن الآن فقط ندرك

الوقت قد توقف، ولكن عينى تنظران التاريخ والساعة، أعرف أنه حان الوقت، وكان داخلى قد حان قبلها بزمن نفسى آخر لا ينتمى إلى مفردات الدقائق والساعات

ارتديت ملابسى وسط أجواء الهدوء الأكبر فى حياتى، كنت

أستشعر العاصفة المقبلة، ولكنى أتقبلها فى هدوء، لن أنتظرها، فهى قد أتت بالفعل، ولكن حتى العواصف تحوى هدوءا من نوع آخر

وسط الزحام سرت مبعدا عنى الخوف القديم، لاح لى ذلك الخوف القديم الذى لم أكن أدركه فى وجوه الناس، لا أجد له مكانا فى قلبى الآن، ذلك الإحساس بالوحشة والانفراد والعزلة المطلقة التى تقارب الجنون. ذلك الخفيف يقترب منا يوميا فنبعده بعملية الإلهاء المتواصل، الكل يسير الآن ولا أحد يسير الجميع يأكلون ولا أحد يأكل الجميع ينامون ولا أحد ينام. كأنى وضعت يدى على تلك الحلقة المفقودة، ابتعدت عن التلهى بأى فكرة أخرى وأصبح كل تركيزى على الفعل ذاته. أنا أسير الآن نعم أنا أسير

أرى أقدامى خطواتى أستمع إلى أنفاسى فى هدوء. لا أحد يستطيع أن يرغمنى على السير فى القطيع خوفا من العزلة، لم تعد موحشة بالنسبة لى. رأيت نفسى من لحظات كما هى دون تغيير، كأن الأمور أصبحت واضحة الآن دون مجهود.

وصلت إلى المسرح، الإعلانات معلقة، اقتربت من البوستر لأراه للمرة الأولى

عرض بلا عنوان.

تقدمه فرقة الشارع، عرض ارتجالى حقيقى.

دخلت مبتسما بينما بعض الجمهور قد بدأ فى التوافد وانتظر خارجا بدء الإذن بالدخول، المسرح عبارة عن مساحة معقولة كانت

تستخدم من قبل كجراج للسيارات تم تحويلها إلى مسرح للعروض المستقلة، رصت الكراسى للجمهور وعدا ذلك فلا يوجد شيء آخر، فقط وجدت ورقة معلقة فى الخارج والداخل مكتوب عليها الآتى

ممنوع الخروج من العرض قبل انتهائه مدة العرض غير معلومة

ضحكت فى داخلى وأنا أستشعر رائحة أحمد راتب، دخلت فورا إلى الكواليس البسيطة المرتجلة فى ذلك المسرح المتواضع، وجدت أحمد راتب بمفرده، صافح كل منا الآخر، ونظرت حولى فلم أجد أحدا، فأومأ لى أحمد برأسه وقال

ربما سنكون بمفردنا، هذا أفضل مما توقعت، فقد ظننت أنى سأكون بمفردى وبالطبع كنت سأقوم بإلغاء العرض

لم أرد، ولكن ابتسامتى لم تفارق وجهى ونفسى، انتظرت فى هدوء، مر الوقت سريعا وكان قد تبقى على العرض نصف ساعة فقط، أخيرا دخل باسم وبصحبته هديل(١).

نظرت إلى أحمد الذى ابتسم أخيرا، كنا قد عرفنا أن ذلك يعنى أنه لن يأت أحد غيرهم، ولكن قدومهم وحده مفاجأة.

- حسنا هذا أفضل مما توقعت

رددها مرة أخرى أحمد راتب اقتربت من هديل وسألتها هل اتخذت القرار بمفردها، فأجابتنى بأنها لم تناقش أحدا قط فى هذا القرار سوى باسم، أضافت أن البقية حاولوا إثناءهما بكل الطرق الممكنة، ولكنهم أصروا على المشاركة، سألتها عن سبب هذا الإصرار، صمتت قليلا، ثم قالت إنها ستعرف السبب اليوم.

نهض أحمد من مكانه وقال لنا إن الوقت حان لإخبارنا بالشيء الوحيد الذى سيتم الاتفاق عليه نظرنا إليه باهتمام، فأكمل

- نحتاج إلى شيء واحد متفق عليه نستطيع به البدء، ظللت أفكر كيف يمكننا أن نستثير الحضور للمشاركة دون افتعال أو إعداد، فلم أجد سوى طريقة واحدة الصمت

ومضت فى ذهنى سريعا صورة الورقة المعلقة فى الداخل والخارج والتى تقضى بعدم الخروج قبل انتهاء العرض الغير معروف مدته، نور بدأ يغمر عقلى فجأة.

- سنصمت جميعا عن بدء العرض سنصمت حتى يتكلمون. وإن لم يتكلموا لن نتكلم طوال المدة.

كنا ننظر إلى بعض فى فضول وترقب، كل منا يحاول تخيل ما سيحدث، وأنا أنعم فى نور صاف بمخيلة أقوى من الحقيقة، لم أشعر بالوقت مطلقا، وكانت الدنيا قد أظلمت بالكامل حتى فى مكان الحضور، فلم يستطع أحد رؤية شيء بينما كنا نحن فى أماكنا التى اختارها كل واحد بحرية، بعد دقائق بسيطة سيفتح الستار على حقيقة مفزعة. على لا شيء!

انتظرت جالسا على مقعد خشبى فى سط المسرح، لم أكن بحاجة لأغمض عينى فالظلام من حولى والصمت مهيب، لم أسمع سوى دقات قلبى تدق فى صمت، وضعت يدى على قلبى فشعرت بقوتها، نظرت فى كل اتجاه فلم أنظر شيئا وسط هذا الظلم ولم أكن حتى أعرف أماكن بقية الفريق(٢)

كانوا ينظرون إلينا في انتظار شيء ما، وكأن كل شيء أصبح واضحا عبر الصمت، قرأت أفكارهم بسهولة، منهم من ينتظر أن يراقب الأداء لينتقده ويبدو في صورة العالم الخبير في المسرح، ومنهم من أتى باحثا عن كل الوسائل لقتل الوقت، ومنهم من أتى منتظرا التعليم والإرشاد إلخ

المذهل أنهم كانوا يبدون كالعرايا الذين أتوا ليشاهدوا عرايا وكل منهم يظن أن هذا العرى هو الموضة الأحدث

انتظروا دقائق ونحن صامتون لا نتحرك، ولا يسمع أحد حتى صوت أنفاسنا، أعتقد أنه لم يلتفت أحدنا للبقية، وإلا كنت قد سمعت صوت تحركه وسط هذا الصمت، كأن كل منا قد استغرق في حالة من النوم العميق، أو ربما الصحوة.

بعد مرور دقائق بسيطة بدأ الجمع يتململ، كانوا ينظرون في كل الاتجاهات منتظرين ربما بداية غير متوقعة، كل منهم يفكر الآن في الخدعة التي سنخدعهم بها، ربما سيقفز عليهم ممثل آخر من أعلى، أو ربما ستفتح الأرض فاها وتخرج ممثلا عبقريا من داخلها، انتظروا موسيقى ما انتظروا الاستعراض. انتظروا الكوميديا انتظروا انتهاء خطأ ما في أجهزة الإضاءة أو الصوت انتظروا كل شيء سوى الحقيقة، الحقيقة أنهم لم ينتظروا شيئا من قبل

ظللنا كما نحن، تحدينا جنوننا وحافظنا على الصمت، لم أشعر حتى برغبة في الكلام، وما فائدته الآن، أرى كل شيء في يسر، كنت أغمض عيني وأرى نفسي عبر كل ذلك الزمن. عبر كل تلك الحيوات النفسية أو الحقيقية لا أعرف.. لكني أعرف جيدا عن زهران بداخلي، وعن لارا وألكسي وتسبا أغمضت عيني وشعرتني تلك الجزوع تخرج من الأرض تستقبل الشمس، شعرتني تلك الأوراق. شعرتني ذلك اللوتس الذي يطهر نفسه بنفسه. شعرتني تلك الغزالة تمرح عبر الموج. شعرتني تلك اللبؤة المترقبة لغزالة، شعرتني القاتل والمقتول، أنا الجميع، أفقت فجأة على ذلك الصوت الزاعق.

- متى سيبدأ العرض؟ أهذه مزحة ما؟

كان ذلك صوت أحد الجمهور الذي تشجع أخيرا وقطع ذلك الصمت سمعت أحدهم يهمهم في سخرية بشيء ما في أذن جاره، وشيئا شيئا بدأ صوته يتضح لجلوسه في المقعد الأمامي، كان يقول شيئا ما عن التجريب، ظنه عرضا تجريبيا، وبدأت ملامحه واثقة في فهمه لتلك الأنواع الجديدة من المسرح على عكس ذلك المغفل في نظره الذي لا يدري شيئا عن المسرح الحديث

فكرت الآن أننا في مسابقة تحدى. من يستطيع الصمود مدة أطول؟ عرفت الآن كم هي صعوبة الأمر، فما إن تصمت حتى تواجه ذلك الوضوح المزعج قلبت نظري في الحاضرين، وكأني أراني وأرى الجميع كأننا جسدا واحدا انقسم إلى كتل هاربة في كل مكان لا تود التجمع أبدا.

الوجوه واحدة لا يجمعها سوى الرغبة فى الهروب ،.ماذا يكمن فى الصمت يجعلنا نهرب طوال الوقت عبر الإلهاء المتعمد؟ ربما هو الوضوح(٣)

بدأت الأجواء فى الاشتعال حينما نهض أحدهم فى عصبية شديدة ليخرج من المسرح وعندما أخبروه فى الخلف أنه لا يمكن الخروج إلا بعد نهاية العرض تعدى عليهم بالسباب ، بل وطالت يده بعضهم ؛ فسمحوا له بالخروج بينما الجمهور ينظر إلى الخلف وإلى الأمام وكأنه تمت محاصرته ، الباب يلمع أمام أعينهم يغريهم بالانصراف ، وشىء آخر يلح بداخلهم ويغويهم للانتظار ، الفخ فى انتظارهم الآن وما عليهم سوى إطاعة قلوبهم مرة واحدة فقط .

قلبى كان يدق بعنف وكنت مصرا على عدم النظر إلى بقية أعضاء الفريق ، ربما هم قد تحركوا بالفعل وربما لم يبق سواى على الخشبة .

فى تلك اللحظة أفقت من أفكارى على صوت أحدهم قد اقترب من الخشبة وبدأ فى الحديث

- أيا كان السبب فيجب عليكم أن تتكلموا الآن ، الأمر تعدى مزحة ما أو تجريب مسرحى ، لقد بدأ الجمهور فى الانصراف فابدأوا العرض من فضلكم .

صمت مفاجئ حل على المكان واتجهت أنظار الجميع صوب ذلك الرجل كنت عاجزا عن رؤية ملامحه فى تلك الإضاءة الخافتة ، أغمضت عينى ووجدتنى طفلا صغيرا ينظر إلى أبيه منتظرا

الإنقاذ. وجدتنى أنظر إلى السماء منتظرا الإجابة، تلك اللحظة بعينها استطعت فيها أن أنظر الرجل جيدا، وكأن ملامحه بانت بوضوح

شهقت فجأة بصوت مرتفع حتى التفت كثيرون إلى؛ فصوت الشهقة فى ذلك الصمت كان واضحا

- أنا أعرفك

قلتها له لتتجه الأنظار كافة إلى ولأول مرة منذ بداية العرض نظرت الفريق بكامله ينظر ناحيتى.

- سيدى عليك أن تغسل يدك جيدا من رائحة القمامة

بعد كل ذلك الصمت تخرج تلك الجملة من فمى وينظر الجميع فى تعجب ولأول مرة أنظر بقية أعضاء الفريق على الخشبة، فتحت عينى وقتها ورأيت كل من حولى والتفت إلى كل الاتجاهات كنت أريد أن أنظر جيدا، وكأن النظر تلك المرة هو الأول من نوعه، حدقت فى كل الوجوه إلى أن قطع ذلك الصمت أحدهم وانفجر ضحكا

- بعد كل ذلك الصمت تكون تلك هى الجملة الأولى حسنا يبدو أنها مسرحية رائعة بالفعل! أنا بالفعل أتأسف من أجل تضييع ذلك الوقت فى تلك المزحة السخيفة

أنهى جملته وتوجه صوب الباب لينصرف قبل أن يوقفه صوت الرجل الأول الواقف أمام خشبة المسرح.

- انتظر

توقف بالفعل الرجل ونظر إلى صاحب الصوت والتفت أنا أيضا له كان يرتجف ووجهه يتعرق بغزارة

- أية قمامة تقصد ؟

أجبته فورا

- هى التى تفكر فيها يا سيدى .

جلس الرجل على حافة الخشبة مديرا ظهره لنا ، أو بمعنى أدق سقط من التعب مستندا على الخشبة وكأنه تهاوى وفقد آخر قواه .

- حسنا أيها السادة ، أظن أن الأمر ليس بمزحة ، ربما فقط لا أقوى على الاعتراف الآن ، لا أفهم كيف رأى ذلك الشاب ما فعلته من أعوام طويلة وكبته بداخلى حتى اعتقدت أنى نسيته ، كلفنى الأمر منذ أعوام طويلة يدى اليسرى ، فمنذ تلك الحادثة وهى متوقفة تقريبا عن الحركة أو متخشبة كما ترون .

نظر الجميع إلى يده ، ونظرت أنا إلى ما بداخلى ، كانت الصورة واضحة ورائحة القمامة نفاذة كأنها بجوارى ، أغمض عينى وأفتحها عدة مرات والصورة عالقة كما هى .

- أنا لا أفهم شيئا الآن وأرجو أن تساعدنى ، لا أعرف هل قمتم بكل هذا فقط من أجل فضح قصة تعود إلى ثلاثين عاما ؟ أوضح لى من فضلك

حينها توجهت الأنظار مرة أخرى إلى ، نظرت بطرف عينى إلى الرجل الذى كان يود الانصراف فإذا هو الآخر متسمرا فى مكانه

- فقط رأيت تلك الصورة متعلقة بذهنى عنك ، وهناك أيضا الرائحة ، لا أعرف كيف حدث هذا .

نظر إلى وأجابنى فورا

- لقد ظلت تلك الرائحة ملتصقة بأنفى مدة طويلة، حتى أنى بعد مرور شهور على الحادث ظللت أشعر بها تتخللنى.

خيم الصمت مرة أخرى، وما أن مرت دقائق أخرى حتى بدأ الجمع فى التململ والتبرم. قطع الصمت تلك المرة أحمد راتب

- ما الذى يقلقكم إلى هذا الحد بالصمت؟ لا تستطيعون التركيز، نريد جميعا ذلك الإلهاء المتواصل

نهض بعدها من جلسته على الأرض وأغمض عينه قليلا وبدأ، لا أعرف كم من الوقت استمر الأمر، فقط وجدتنى أشترك معه، وفى غضون لحظات كان باسم وبعده هديل قد بدأوا فى الحركة، نطق كل منا بكلمات لم تكن على باله ورقصنا وذهبنا هنا وهناك وأغمضنا عيوننا واعترفنا وأصابنا الذهول وسط ذلك الصمت من حولنا وفى داخلنا، أصداء بعض الجمل كانت تدوى فى داخلى، بعضها نطقته أنا والبعض الآخر نطقوه هم.

ذلك الفراغ يستولى عليك كاملا حتى تصبح جسدا مفرغا هيكلا عظميا تضحك جمجمته فى بلاهة منتظرة النهاية التى قد أتت بالفعل ولكنك لا تدرى أنك انتهيت(٤)

قالها أحمد راتب بينما هو يجسد حركات تكرارية عبثية، كان ينهض من النوم ويتناول الطعام، ويقرأ قليلا، ثم يركب سيارته، ويجلس على كرسيه فى عمله، ويتشاجر مع الفراغ، ويعود مرة أخرى حتى ينام؛ ليبدأ مجددا، ظل يكرر الحركات عدة مرات حتى

شعرت بنفسي وسط ذلك الفراغ، وقبل أن أفيق كانت هديل قد بدأت في خلفية أخرى بالنطق والحركة

- لأني هي الأولى والأخيرة. .المكرمة والمكروهة، العاهرة والقديسة.

وبدأت في الرقص بأداء تعبيري مذهل، كان أداؤها حسيا للغاية تتخلله نظرات روحانية غريبة، ذلك التناقض مع لوحة التكرار لراتب شكل لوحة سريالية غريبة لم يكن ينقصها سوى كلمات متفرقة ومونولوجات قصيرة بدأت من باسم، كنا قد تدربنا على تلك التداخلات جيدا في الورشة المسرحية، ولكن كل ما فعلناه تلك المرة كان بالفعل من وحي اللحظة وبشكل ما كان مترابطا

أما عني فقد أغمضت عيني وبدأت في الدوران كراقص مولوي بدأت أدور ببطء مغمضا عيني لا أعرف هل أدور في نفس المكان أم أني أتحرك، ولكني في داخلي كنت أتحرك بحرية بعد مدة فتحت عيني ولم يصبح هناك فرق بين إغماض العين وفتحها، في لحظة ما شعرت بنور خاطف أبيض يغطي عيني وكأني أغوص فيه ولم أر شيئا شعرت بأني أخف تدريجيا وكأن الجاذبية لم تصبح موجودة واستعديت للطيران، لم أعد أميز هل أنا في ضوضاء مفزعة أم هدوء قاتل، فكلاهما يبدو متشابه، الوضوح والغموض أيضا الشيء ونقيضه الرؤى تتوالى. زهران لارا ألكسي.. تسبا أحمد راتب .. الجميع . أنا!

فتحت عينى فإذا الجمع ملتف من حولى وفى مقدمتهم راتب، لم أفهم شيئا، سألنى إن كنت على ما يرام، فأومأت برأسى واتكأت عليه لأنهض من على الأرض التى كنت أفترشها

لحظات وسمعت ضوضاء أخرى وصوت تكسير، وما إن نظرت حتى اقتحم المسرح بعض الملتحين وهم يصرخون الله أكبر، نظرت إلى الجمهور المرتاع، البعض لبث فى مكانه مختبئا أو متجمدا من الخوف، والبعض حاول مقاومة العصى المنهالة على الجميع بينما أنا ثابت فى مكانى حتى اقترب أحدهم منى وحدق فى وجهى بكره. شعرت أنى أنظر فى مرآة، صدم بعصاه وجهى فسقطت مرة أخرى إلى الأرض وأظلمت الدنيا

***

هل استغرقت فى النوم؟ لا أعرف الصورة كما هى والصمت أمامى، والجمهور فى انتظار أن نتكلم.

فكرت الآن أننا فى مسابقة تحد. من يستطيع الصمود مدة أطول؟ عرفت الآن كم هى صعوبة الأمر، فما إن تصمت حتى تواجه ذلك الوضوح المزعج. قلبت نظرى فى الحاضرين، وكأنى أرانى وأرى الجميع. كأننا جسما واحدا انقسم إلى كتل هاربة فى كل مكان لا تود التجمع أبدا

الوجوه واحدة لا يجمعها سوى الرغبة فى الهروب، ماذا يكمن فى الصمت يجعلنا نهرب طوال الوقت عبر الإلهاء المتعمد؟ ربما هو الوضوح.

بدأت الأجواء في الاشتعال حينما نهض أحدهم في عصبية شديدة ليخرج من المسرح وعندما أخبروه في الخلف أنه لا يمكن الخروج إلا بعد نهاية العرض تعدى عليهم بالسباب، بل وطالت يده بعضهم فسمحوا له بالخروج بينما الجمهور ينظر إلى الخلف وإلى الأمام وكأنه تمت محاصرته، الباب يلمع أمام أعينهم يغريهم بالانصراف وشيئا آخرا يلح بداخلهم يغويهم بالانتظار. الفخ في انتظارهم الآن وما عليهم سوى إطاعة قلوبهم مرة واحدة فقط

قلبي كان يدق بعنف وكنت مصرا على عدم النظر إلى بقية أعضاء الفريق، ربما هم قد تحركوا بالفعل وربما لم يبق سواى على الخشبة

في تلك اللحظة أفقت من أفكاري على صوت أحدهم قد اقترب من الخشبة وبدأ في الحديث

- أيا كان السبب فيجب عليكم أن تتكلموا الآن، الأمر تعدى مزحة ما أو تجريب مسرحي. لقد بدأ الجمهور في الانصراف؛ فابدأوا العرض من فضلكم.

صمت مفاجيء حل على المكان واتجهت أنظار الجميع صوب ذلك الرجل، كنت عاجزا عن رؤية ملامحه في تلك الإضاءة الخافتة، أغمضت عيني ووجدتني طفلا صغيرا ينظر إلى أباه منتظرا الإنقاذ وجدتني أنظر إلى السماء منتظرا الإجابة، تلك اللحظة بعينها استطعت فيها أن أنظر الرجل جيدا، وكأن ملامحه بانت بوضوح.

شهقت فجأة بصوت مرتفع حتى التفت كثيرون إلى فصوب الشهقة فى ذلك الصمت كان واضحا

- أنا أعرفك

قلتها له لتتجه الأنظار كافة إلى ولأول مرة منذ بداية العرض نظرت الفريق بكامله ينظر إلى

- نعم أنا أعرفك. سيدى عليك أن تغسل يدك جيدا من رائحة القمامة

ظل واجما للحظات، وحتى الرجل الذى أراد الانصراف توقف والتفت يتابع ما يحدث

- حسنا أيها السادة، أظن أن الأمر ليس بمزحة، ربما فقط لا أقوى على الاعتراف الآن، لا أفهم كيف رأى ذلك الشاب ما فعلته من أعوام طويلة وكبته بداخلى حتى اعتقدت أنى نسيته، كلفنى الأمر منذ أعوام طويلة يدى اليسرى، فمنذ تلك الحادثة وهى متوقفة تقريبا عن الحركة أو متخشبة كما ترون.

نظر الجميع إلى يده، ونظرت أنا إلى ما بداخلى، كانت الصورة واضحة ورائحة القمامة نفاذة كأنها بجوارى، أغمض عينى وأفتحها عدة مرات والصورة عالقة كما هى.

- أنا لا أفهم شيئا الآن وأرجو أن تساعدنى، لا أعرف هل قمتم بكل هذا فقط من أجل فضح قصة تعود إلى ثلاثين عاما؟ أوضح لى من فضلك

حينها توجهت الأنظار مرة أخرى إلى. نظرت بطرف عينى إلى الرجل الذى كان يود الانصراف فإذا هو الآخر متسمرا فى مكانه

- فقط رأيت تلك الصورة متعلقة بذهنى عنك، وهناك أيضا الرائحة، لا أعرف كيف حدث هذا

نظر إلى وأجابنى فورا

- لقد ظلت تلك الرائحة ملتصقة بأنفى مدة طويلة، حتى أنى بعد مرور شهورا على الحادث ظللت أشعر بها تتخللنى

كان يجب عليك وقتها أن تنهى ذلك الأمر

كيف ؟

- ربما توجد أمامك فرصة الآن.

ظل يفكر طويلا والعيون تحدق فيه، ثم تحرك من موضعه وإلتفت صوب الجمهور، همس أحدهم فى أذن الآخر بصوت كان مسموعا لى لقرب مقاعدهم ها هى حبكة وخدعة جديدة، ولكن الرجل مضى فى طريقه وبدأ التكلم.

كنت سائرا وقتها فى شارع مظلم فى وقت متأخر، لا أذكر الآن من أين أو إلى أين كنت أمضى، امحت كل ذاكرة أملكها قبل ذلك الحدث، وحين مررت بالقرب من مكان تجمعت فيه كمية كبيرة من القمامة سمعت صوتا غريبا، توقفت لحظات، فى البداية ظننت أنها قطة أو حيوان ما، ولكن الصوت كان بشريا بما لا يدع مجالاً للشك، شعرت بالخوف يغزو قلبى فمضيت فى طريقى ولكن الصوت ازداد علوا، ووجدت نفسى أتوقف مرة أخرى، التفت فى رعب وقادتنى قدماى ببطء شديد صوب القمامة للتعرف على الصوت، شيء كان يجذبنى بقوة صوب الصوت، توغلت قليلا فى

القمامة وأخرجت هاتفى المحمول الذى يوجد به كشافا صغيرا أصابه، محاولاً استشفاف مصدر الصوت، ووجدته

كان أحدهم راقدا وسط القمامة يتأوه محتضرا من الألم، أزلت القمامة من حوله فوجدت دما غزيرا يخرج من بطنه، لم يكن يستطيع قول كلمة واحدة، ولكن الكلمة أتت من أول الشارع، سمعت البعض قادمون، لم أدر بنفسى إلا وأنا أغطى وجهه وجسمه بالقمامة مرة أخرى وأركض هاربا، من وقتها أصابنى شلل فى يدى اليسرى لم يفارقنى حتى الآن، ظللت أشم تلك الرائحة طوال الوقت حتى الآن، وأستيقظ فزعا على صوت ذلك التأوه فى مخيلتى

قطع صوت الرجل وحكايته ضوضاء وصوت تكسير، وما إن نظرت حتى اقتحم المسرح بعض الملتحين وهم يصرخون الله أكبر، نظرت إلى الجمهور المرتاع، البعض لبث فى مكانه مختبئا أو متجمدا من الخوف، والبعض حاول مقاومة العصى المنهالة على الجميع بينما أنا ثابت فى مكانى؛ حتى اقترب أحدهم منى وحدق فى وجهى بكره. شعرت أنى أنظر فى مرآه، صدم بعصاه وجهى فسقطت مرة أخرى إلى الأرض وأظلمت الدنيا

***

هل استغرقت فى النوم؟ لا أعرف الصورة كما هى والصمت أمامى، والجمهور فى انتظار أن أتكلم.

فكرت الآن أننا فى مسابقة تحد.. من يستطيع الصمود مدة

أطول؟ عرفت الآن كم هى صعوبة الأمر، فما إن تصمت حتى تواجه ذلك الوضوح المزعج قلبت نظرى فى الحاضرين، وكأنى أرانى وأرى الجميع. كأننا جسما واحدا انقسم إلى كتل هاربة فى كل مكان لا تود التجمع أبدا

الوجوه واحدة لا يجمعها سوى الرغبة فى الهروب، ماذا يكمن فى الصمت يجعلنا نهرب طوال الوقت عبر الإلهاء المتعمد؟ ربما هو الوضوح.

قطع الصمت تلك المرة أحمد راتب

ما الذى يقلقكم إلى هذا الحد بالصمت؟ لا تستطيعون التركيز، نريد جميعا ذلك الإلهاء المتواصل(٥)

نهض بعدها من جلسته على الأرض وأغمض عينه قليلا وبدأ

لا أعرف كم من الوقت استمر الأمر، فقط وجدتنى أشترك معه، وفى غضون لحظات كان باسم وبعده هديل قد بدأوا فى الحركة، نطق كل منا بكلمات لم تكن على باله ورقصنا وذهبنا هنا وهناك، وأغمضنا عيوننا واعترفنا وأصابنا الذهول وسط ذلك الصمت من حولنا وفى داخلنا أصداء بعض الجمل كانت تدوى فى داخلى، بعضها نطقته أنا والبعض الآخر نطقوه هم.

ذلك الفراغ يستولى عليك كاملا حتى تصبح جسدا مفرغا هيكلا عظميا تضحك جمجمته فى بلاهة منتظرة النهاية التى قد أتت بالفعل ولكنك لا تدرى أنك انتهيت.

قالها أحمد راتب بينما هو يجسد حركات تكرارية عبثية، كان

ينهض من النوم ويتناول الطعام، ويقرأ قليلا، ثم يركب سيارته، ويجلس على كرسيه فى عمله، ويتشاجر مع الفراغ، ويعود مرة أخرى حتى ينام؛ ليبدأ مجددا، ظل يكرر الحركات عدة مرات حتى شعرت بنفسى وسط ذلك الفراغ، وقبل أن أفيق كانت هديل قد بدأت فى خلفية أخرى بالنطق والحركة

لأنى هى الأولى والأخيرة. .المكرمة والمكروهة، العاهرة والقديسة.

وبدأت فى الرقص بأداء تعبيرى مذهل، كان أداؤها حسيا للغاية تتخلله نظرات روحانية غريبة، عرفت أن طاقة من الكشف تجتاح المكان الآن حتى عبر الجسد والرقص، بدأنا جميعا فى مجاراة الأمور بتشكيل لوحات حركية وجدنا أنفسنا ننفذها بعفوية، وكنا قد تردبنا على ذلك كثيرا، ولكن العفوية هى ما يميز الأمر تلك المرة، شكلنا حلقات دائرية متكررة حول هديل وهى تواصل الرقص

كلما كنت أمر بالقرب من وجهها أثناء الدوران كنت أنظر عينيها وكأنها فى حالة نشوة حتى أنى نظرت إلى قدميها معتقدا أن وزنها قد يخف وتبدأ فى الارتفاع قليلا عن الأرض، حاولت هى اختراق الحصار ولكننا ظللنا نتحرك يمينا ويسارا خانقين إياها فى دائرة آخذة فى التصاغر حتى أصبحنا ملتحمين تقريبا بها، زحفت على الأرض محاولة الخروج من أسر تلك الدائرة، فقاومنا، نسيت كل شىء وحاولت منعها فعلا من الخروج، ونظرت إلى وحاولت هى الخروج فعلا بكل طريقة. رفعت صوتها وبدأت فى الغناء، أذكر من

كلماتها بعض كلمات أغنية أنكمش لكاميليا جبران، ظل صوتها في التصاعد حتى وصلت إلى كلمة أتعرى، قالتها بصراخ وظلت تكررها غافلة عن بقية الأغنية لتقوم بالقفز من فوق حواجز شكلناها بيدينا وتحاول النهوض عدة مرات وحدها وتسقط، حتى تلك المرة الأخيرة التي قامت فيها ببطء شديد كتصوير سينمائي بطيء، اكتمل نهوضها ونظرت إلى الجمهور في صمت.

ظل الصمت يخيم مدة قطع أحدهم الصمت بالتصفيق، وسرعان ما أفقنا من رقصنا الحافل على صوت اللهاث والتصفيق، قبل أن نكمل إفاقتنا سمعت ضوضاء أخرى وصوت تكسير، وما إن نظرت حتى اقتحم المسرح بعض الملتحين وهم يصرخون الله أكبر، نظرت إلى الجمهور المرتاع، البعض لبث في مكانه مختبئا أو متجمدا من الخوف، والبعض حاول مقاومة العصي المنهالة على الجميع بينما أنا ثابت في مكاني حتى اقترب أحدهم مني وحدق في وجهي بكره شعرت أني أنظر في مرآة، صدم بعصاه وجهي فسقطت مرة أخرى إلى الأرض وأظلمت الدنيا

هل استغرقت في النوم؟ لا أعرف. الصورة كما هي والصمت أمامي، والجمهور في انتظار أن أتكلم.

فكرت الآن أننا في مسابقة تحد من يستطيع الصمود مدة أطول؟ عرفت الآن كم هي صعوبة الأمر، فما إن تصمت حتى تواجه ذلك الوضوح المزعج. قلبت نظري في الحاضرين، وكأني أراني

وأرى الجميع. كأننا جسما واحدا انقسم إلى كتل هاربة فى كل مكان لا تود التجمع أبدا

الوجوه واحدة لا يجمعها سوى الرغبة فى الهروب، ماذا يكمن فى الصمت يجعلنا نهرب طوال الوقت عبر الإلهاء المتعمد؟ ربما هو الوضوح.

قطع الصمت تلك المرة أحمد راتب

- ما الذى يقلقكم إلى هذا الحد بالصمت؟ لا تستطيعون التركيز، نريد جميعا ذلك الإلهاء المتواصل(٦).

نهض بعدها من جلسته على الأرض وأغمض عينه قليلا وبدأ

لا أعرف كم من الوقت استمر الأمر، فقط وجدتنى أشترك معه، وفى غضون لحظات كان باسم وبعده هديل قد بدأوا فى الحركة، نطق كل منا بكلمات لم تكن على باله ورقصنا وذهبنا هنا وهناك، وأغمضنا عيوننا واعترفنا وأصابنا الذهول وسط ذلك الصمت من حولنا وفى داخلنا، أصداء بعض الجمل كانت تدوى فى داخلى، بعضها نطقته أنا والبعض الآخر نطقوه هم.

- ذلك الفراغ يستولى عليك كاملا حتى تصبح جسدا مفرغا هيكلا عظميا تضحك جمجمته فى بلاهة منتظرة النهاية التى قد أتت بالفعل ولكنك لا تدرى أنك انتهيت.

قالها أحمد راتب بينما هو يجسد حركات تكرارية عبثية، كان ينهض من النوم ويتناول الطعام ويقرأ قليلا ثم يركب سيارته ويجلس على كرسيه فى عمله ويتشاجر مع الفراغ ويعود مرة أخرى

حتى ينام، ليبدأ مجددا، ظل يكرر الحركات عدة مرات حتى شعرت بنفسي وسط ذلك الفراغ، وقبل أن أفيق كانت هديل قد بدأت في خلفية أخرى بالنطق والحركة

- لأني هي الأولى والأخيرة. .المكرمة والمكروهة، العاهرة والقديسة

وبدأت في الرقص بأداء تعبيري مذهل، كان أداؤها حسيا للغاية تتخلله نظرات روحانية غريبة، عرفت أن طاقة من الكشف تجتاح المكان الآن حتى عبر الجسد والرقص.

لحظات وسمعت ضوضاء أخرى وصوت تكسير، وما أن نظرت حتى اقتحم المسرح بعض الملتحين وهم يصرخون الله أكبر، نظرت إلى الجمهور المرتاع. البعض لبث في مكانه مختبئا أو متجمدا من الخوف، والبعض حاول مقاومة العصي المنهالة على الجميع بينما أنا ثابت في مكاني حتى اقترب أحدهم مني وحدق في وجهي بكره شعرت أني أنظر في مرآة تلك كانت لحظة الكشف العظمى، وجدتني في عينيه، ووجدته في داخلي صدم بعصاه وجهي فُ هرت وسقطت على خشبة المسرح، في لحظات السقوط عرفت أنه يسقط هو الآخر عرفت وقتها ما لم أعرفه طوال أعوام. ذلك الصراع الذي يمزق الإنسان عن حلم التغيير لا يجد لنفسه طريقا إلا عبر الحب أو العنف، وجدت الطريقين أمامي في تلك اللحظة، ولكن شيئا آخر فرض نفسه على، عندما نفذت إلى ذلك السر

- أنتم أيها الكفرة قتلتم الآلاف منا بلا رحمة، حان وقت تطبيق شريعة الله، ولن نترككم أبدا، ولتستنجدوا بجيشكم العظيم الذى فوضتموه لقتلنا كما تشاءون، ها أنت بين يدى. حياتك متوقفة على ضربة ستنهال سريعا على رأسك

لم أقاوم ضرباته المستمرة فى جسدى ونظرت أحمد راتب يحاول حماية هديل من هجوم أحدهم والمسرح ينقلب رأسا على عقب، فى لحظات رأيت كل متفرج يهرب من مصير يركض خلفه بإصرار، وما من مفر من قبوله.

ظل الرجل يركل جسدى بعنف، كنت أسمعه وأحدق فى كوة النور الآتية من خلفه، نفذت إلى السر وجدت لارا وألكسى وزهران وتسبا وجدتنى.

انتظرت جالسا على مقعد خشبى فى سط المسرح. لم أكن بحاجة لأغمض عينى فالظلام من حولى والصمت مهيب، لم أسمع سوى دقات قلبى تدق فى صمت، وضعت يدى على قلبى فشعرت بقوتها، نظرت فى كل اتجاه فلم أنظر شيئا وسط هذا الظلم ولم أكن حتى أعرف أماكن بقية الفريق.

قررت أن أغمض عينى.

- هل أنت مستعد؟

شهقت شهقة هائلة، أمسك أحمد راتب بذراعى فى هلع وهو يسألنى ماذا بك؟ ظللت أنظر وجهه غير مصدق. التفت فوجدت

الستارة كما هى لم تفتح بعد، استرجعت كل شيء وكل ما حدث.

- لا شيء. لا شيء فقط أحتاج إلى دقيقة واحدة قبل العرض.

تركنى فى صمت ولم أر شيئا فى الظلام. أو رأيت كل شيء رأيت كل ما حدث، وكل ما يحدث، وكل ما سيحدث. رأيتنى، حاولت وأنا أصر على أسنانى من الألم أن أذكر السر وكوة النور من خلف ذلك الرجل وهو يركلنى، رأيتنى أنا هو، وهو أنا رأيت كل شيء فى وحدة مترابطة وكأننا روحا واحدة انقسمت، وفى لحظات بسيطة رأيتنا منفصلين مرة أخرى، حول ذلك السر من الوحدة والانفصال. من المفارقة شعرت أنى أرى كل شيء.

بدأت الستارة فى الحركة، ولم تمر ثوان حتى وجدتنى أمام الجمهور فى صمت، لم ألتفت ولم أنظر أماكن بقية الفريق، قلبت وجهى فى الحاضرين بشوق، ولم أتفاجأ حينما وجدت أحدهم بيد يبدو كالمشلولة

حسنا ما على الآن سوى أن أنتظر كوة النور مرة أخرى.

***

الهوامش

(١) شهادة أحمد راتب عن هديل ربما ما ربطها من البداية كان الحكى المتواصل فى الورشة المسرحية، أحبت الحكى جدا أحبت فقرة الاختبارات النفسية. أحبت أن تحكى عن نفسها قليلا، وربما كثيرا؛ أخبرتها فى يوم أن المسرح ليس وظيفته علاج مرض نفسى، فصرخت بنظرة لن أنساها وإن كان من أمامك كذلك ماذا يفعل؟ وقتها عرفت أن ما يربط الفريق بالمسرح هو أشد تعقيدا مما عرفت أو تخيلت ،بدأتُ فى فهم الأمور جيدا فى ذلك اليوم الذى نفذت فيه اختبار الجسد معهم، طلبت منهم أن يقفوا على مسافات مبتعدة، وأن يغمض كل منهم عينه للحظات. ثم يبدأ فى تفحص أجزاء جسده بالكامل. يتلمس كل جزء منها، ويتعرف على ملمسه وشكله ووزنه وحركته.. يشعر به، ذلك اليوم لم تستطع هديل أن تكتم انفعالها، تعبت للغاية بل وبكت، بالطبع كنت أتابعهم جميعا، كانوا يتجنبون ملامسة المناطق الجنسية ويهربون من التعرف عليها، وكلما فعلوا ذلك كلما زادت فكرة الهروب فى عقولهم أكثر، وبالطبع صارحتهم بهذا، كنت صدمة متحركة للجميع، لم يعتد أحد منهم أن يتكلم بتلك الحرية ،نظرت جيدا إلى هديل، انفعال وجهها أكسبها هيئة امرأة فى السبعين، بكت فى النهاية وانصرفت من البروفة، بعد ساعة تقريبا عادت مرة أخرى من تلقاء نفسها، لم أتكلم كلمة واحدة وسمحت لها بالانضمام للبروفة مرة أخرى، دقائق وبدأ الاختبار الثانى، هديل بحكم جمالها الجسدى الباهر كانت محط أنظار الكثيرين، مع الوقت بدأ البعض فى محاربتى عندما لاحظوا التغير الذى بدأ يطرأ على شخصيتها، تركت ذلك الساذج الذى كانت ترافقه دون أن أتكلم كلمة واحدة معها، لم أسع

لإجبارها على الحكى أو مصادقتى، إلا أن بمرور وقت بسيط كانت تقص لى العديد من الأشياء عن الآخرين أيضا فى ورشات الحكى ،الاختبار الثانى انطلق من مناطق أعمق. من الجذور وهى كل ما يربطك ويشكل فى حياتك ويؤثر فيك تأثيرا لا يمكن إنكاره، بدأ الجميع فى الحكى، وكانت المرة الأولى التى تتغلب فيها هديل على خجلها وتقص بعض الأشياء وعلى الرغم من محاولة إخفاء كثير من التفاصيل، إلا أنى بسهولة أدركت أنها تملك مشكلة مع جسدها كبقية الفتيات، وعيها الآن يتغير بسرعة هائلة، وأنا أبتسم فى داخلى ربما ستكون إحدى المشاركات فى العرض الجنونى الذى سننفذه فى النهاية. أنا سعيد بهديل.

(٢) شهادة أحمد راتب عن باسم باسم هو وحيد أسرته، أسرة قبطية محافظة للغاية.ن عندما كان يستمع إلى موسيقى حرة وغناء حديث كانت أسرته تتعجب تماما وتستنكر هذه الأشياء الواردة على حياته، مدخلى معه كان عن طريق عشقه للفن: بشكل فطرى: كان يعشق كل الفنون تقريبا، ضغطت عليه مرات عديدة لينطق ويتمرد ويفكر بحرية شديدة، وكان هذا بدء أزمته الحقيقية، واجه زيف أسرته وزيفه هو شخصيا، بل وربما زيفى أنا أيضا، شخصيته الهادئة جعلت من تلك الأزمات تمر بسهولة دون أن يصطدم صدمات مدمرة مع أهله: طوال الوقت هو يعانى أثناء بحثه عن الحقيقة بشخصيته المثالية الحالة. أنا أحبه حقا

(٣) شهادة أحمد راتب عن ثابت يحاول بلا فائدة حتى الآن التخرج من كلية الطب، يمقتها بشدة، ولم يدخلها بإرادته بل نزولا على رغبة أبيه وأمه، يصبح هذا القرار بعد ذلك مبررا له طوال الوقت ليلقى عليه كل اتهاماته ضد أبيه وأمه والمجتمع، يريد أن يعمل فى مجال حقوق الإنسان ويحلم بالسفر للخارج ويريد إجادة عدة لغات، كل ذلك فى ومضة من الزمن دون بذل أى مجهود، لم يبدأ تقريبا فى أى خطوة جدية لتحقيق أى من أحلامه، يستمتع جدا بالفشل وإلقاء اللوم على المجتمع الجاهل والمتعصب: يمقت بشدة رجال الدين، وجد متسعا فى الورشة لعرض كل

آرائه بحرية، وأعتقد أن هذا هو السبب الرئيسى لمجيئه لا أعتقد أنه سيستمر طويلا فى القدوم، فشيئا فشيئا سيمل، وربما سيبدأ فى إلقاء بعض الاتهامات على شخصيا ليواصل الاستمتاع بفشله.

(٤) شهادة أحمد راتب عن سامية كانت باختصار سيئة السمعة. سمعت عن الفريق والورشة كغيرها فأتت، تساءلت عن الأسباب وعرفت بعدها أن مساحة الحرية التى كانت توفرها الورشة المسرحية كانت مغرية للجميع. بعد انصرافها فى نهاية البروفة الأولى سألت الجميع عن موقفهم منها فأخبرنى البعض أن كثيرا من الكلام السيئ يدور حولها، فجذبتهم بالكلام وتساءلت عن ماهية الكلام، لم يرد الشباب، وقالت إحداهن إنها تستطيع جذب أى شخص تريده، هديل قالت بصوت خفيض إنها لا تفعل شيئا، بل مجرد كلماتها وطريقة ضحكها وملابسها الضيقة هم المسئولون عن تلك السمعة، أما سناء فأخبرتنى بنظرة غريبة أنها لم تترك أحدا إلا ونامت معه. لم أرد بشىء وتلمست أطراف الكلام فى كل مرة مع سامية. أخبرتنى بسهولة أنها ترافق أحدهم، جذبتها بشتى الطرق حتى تفصح عما بداخلها، واكتشفت أشياء غريبة، ذلك المظهر وتلك الضحكة الخليعة والملابس الضيقة أخفت كراهية عميقة لجسدها لم أكن أتصورها أنا أجزم بأن لا أحد يستطيع ملامستها أبدا وهى فى تلك الحالة، ربما هى حاولت التعويض عن ذلك بصنع العكس وبكلماتها وطريقة حديثها حاولت إقناع البعض بأنها العكس حتى وإن أتى هذا على حساب سمعتها كفتاة شرقية. من المؤكد أنها تعرضت لاعتداء ما من أحد الأقارب فى الصغر، لعدة مرات ذكرت موضوع التحرش من الأقارب وفى نفس الوقت كنت ألحظ عينيها التى تضطرب بشدة عند ذكر ذلك الموضوع،فى كل حديث معها كنت أتلمس كراهيتها العميقة لجسدها، ذلك الفتى الذى كان يلاحقها طلب منها عدة مرات التقبيل وممارسة الجنس ولو بشكل غير كامل، كان ذلك الشاب من أقاربها، وفى كل مرة كان ينظر إليها نظرات قبيحة عند زيارته منزلها لم تجرؤ على إخبار أحد فى أسرتها لمعرفتها جيدا أن أسرتها لن

تصدق هذا ، بدأت تتقيد فى حركتها أكثر ولم تعد تستطيع الحركة بحرية أمام تلك الأعين الشرهة حتى فى حضور أبيها وأمها ، وكأن الجميع يتعامى عن عينه خاصة وأنه كان بالفعل بدأ فى إجراءات خطبة إحدى الفتيات ، فى لقاءاتنا الأخيرة فوجئت بأنها بدأت فى التصريح بإعجابها الشديد بى ، وأخبرتنى أنها سألت أمها إن كان من الممكن أن ترتبط برجل يكبرها بخمسة عشر عاما - هو فرق العمر بيننا- وكررت هذا أكثر من مرة ، ولكنى كنت لا أتفاجأ ولا أضطرب ، بل أحاول جعلها تفيق من تلك الهاوية أعتقد أنها أفاقت فى النهاية ، ولكنها تركت الفريق بلا رجعة .

(٥) شهادة أحمد راتب عن سناء سناء هى من أخبرتنى أن سامية تنام مع الجميع وأنها عاهرة حقيقية ، مات أبوها فى حادث مفاجئ ، وأحست بفقدان لا يمكن لأحد تعويضه ، سرعان ما حاولت استبدالى به ، فتقربت منى بشكل مبالغ ، كان ذلك فى نفس الوقت الذى عرفت فيه تلك المفاجأة ، فى نفس الوقت التى كانت تحاول التقرب فيه منى كانت بصحبة شاب آخر ، ومن جراء الضياع الذى تشعر به عرفت منها هى شخصيا أنه تذهب إليه فى منزله بصورة شبه مستمرة ، كانت تستمتع بسؤالى إياها عن تلك التفاصيل ، وتلحق هذا فورا بالبدء فى محاولة جذبى أنا الآخر ،أخبرت صديقها أنها تأتى بانتظام إلى المسرح فشعر بغيرة شديدة منى ومنعها من الإتيان واستجابت هى بسرعة شديدة لهذا : كنت أتعرف على مزيد من ذلك المجتمع فى صمت فى انتظار العرض النهائى ،سناء من أسرة محافظة وسمعتها يشهد لها الجميع فى حين أن سامية تتمتع بسمعة عاهرة . .يا له من مجتمع رائع !

(٦) شهادة أحمد راتب عن سليم : سليم أزمته كانت الأعنف ، فى اختبار الشجرة ظل لمدة نصف ساعة صامتا ثم انصرف ، لم يعد فى نفس اليوم وتغيب بروفة أخرى ، وأتى بعدها وسمحت له بمعاودة الانضمام ، هو طالب فى كلية الشرطة ، أخبرنى أنه الآن على حافة الهاوية . يرى كل الأشياء منذ ذلك اليوم بصورتين ، يرى ذلك المعتقل يتعذب ثم يأتى لبروفة نتكلم

فيها عن الحريات وحقوق الإنسان. رأى دبورته تُعلق على كتفيه، ورأى حبه للفن، الصورة كانت متناقضة بما يكفي لتحطيمه، ولكنه لم يبك تقريبا أبدا، أخبرته أنه عليه أن يتخذ قراره بمفرده. طوال ذلك الوقت كنت أعمل على شيء واحد، وهو إخراج هذا الحجم الهائل من الكذب من دواخلنا حتى يستطيع كل منهم أن يرى نفسه كما هي، سليم ترك الفريق بعد عدة بروفات، ولكني كنت سعيد للغاية عندما عرفت خبر تركه لكلية الشرطة بعدها بشهر واحد.

للنشر فى السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلا عليه العمل إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع

صدر مؤخراً فى سلسلة
كتابـة

17- أخبار الأيام الأخيرة	ياسر المحمدى
18- جوّايا ســـر	محمد عبد المنعم الحناطى
19- الجميلة وفارس الرياح	فكرى عمر
20- كان عمرى ستاشر ربيع	محمد فهمى
21- التحرر من نوبات الغياب	سامح سكرمة
22- دم لإضاءة الطابق الثانى	أحمد عادل
23- النبـــوءة	أسامة لبيب
24- علـــى دراجـة	شريف سمير
25- أراكـم فى مرآة روحـى.	سماء فهمى
26- تلاوة فى كتاب السامرى.	محمد مجدى
27- عصاى معى والكون يهتز تحتى	محمد المصطفى
28- البنت اللى مليانة ديفوهات.	ريهام سعيد
29- بتغير كل يوم عدسات.	حازم المرسى

شركة الأمل للطباعة والنشر
(موراڤيتلى سابقا)
ت، 23904096 - 23952496

30

كتابة

يوسف نبيل
زينب محمد

المؤلفان لهذا العمل الروائى يجيدان استخدام الأدوات الفنية اللازمة لذلك، كذلك الخيال الذى يربط بين أفعال الحكاية، حتى تنسجم ذاكرة الراوى مع بقية الأحداث. اللغة المجازية الرامزة، والمباشرة الموحية، هي السمة البنائية الأهم فى النص الروائى، والمزج بين اللغة العقلية، واللغة شبه الصوفية، ولغة الواقع والأسطورة والتراث هى الروح التى تربط بين الفكرة والدلالة. اللعب بالزمن داخل الحكايات جزء اصيل من المدركات التى يعى الكاتبان بها وعيا جيدا، كذلك تتداخل الحوادث تداخلا موحيا وجاذبا فى الوقت نفسه.

(د. محمد زيدان)

الغلاف للفنان أحمد الجذابي
OJAN SHIROZHAN ترجمة كولاج مع لوحة

www.gocp.gov.eg

الثمن: جنيهان